

الإمام
الدكتور عبد الحليم محمود



الإسلام والعقل

فانيل



دار المعارف

الإسلام والعقل

الدكتور
عبد الحليم محمود

الإسلام والعقل

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١٩١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف
المرسلين ، سيدنا محمد الداعي للحق والهادي إلى صراطك
المستقيم ، وعلى آله وصحبه والتابعين .
﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهبنا لنا من أمرنا رشداً ﴾

مقدمة

إن كل من يدرس تاريخ الفكر البشرى يلاحظ أن المسائل العقلية البحتة التي طرحت للبحث العقلي في العصور القديمة ، هي نفس المسائل التي طرحت للبحث في العصور الوسطى ، وهي نفس المسائل التي تطرح الآن للبحث . إن مسائل ما وراء الطبيعة ومسائل الأخلاق مازالت كما كانت بحالا للبحث .

إنها لم تتقدم خطوة نحو الحل .

ومازال الخلاف فيها مستمرا - بنفس الحدة - التي كانت في القرون السابقة للميلاد .

ولقد حاول القدماء كما حاول المحدثون : اختراع مقياس يفصل للتفرقة بين الحق والباطل .

ومن أشهر المقاييس القديمة ، ما اخترعه أرسطو تحت عنوان : « المنطق » ولكن هذا المنطق لم يعصم فكرة المخترع نفسه عن الضلال .

ولقد برع في المنطق كثير من المفكرين القدماء ومن مفكرى الإسلام . لقد برع فيه الكندي ، والفارابى ، وابن سينا .

بل لقد برع فيه الإمام الغزالي براعة كبرى .

وبرع فيه فلاسفة الإسلام المغربون ابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد . وهؤلاء جميعاً - اختلفوا اختلافاً جذرياً - في آرائهم وفي نزعاتهم .

ما هو الحق في آراء هؤلاء ، وما هو الباطل ؟
إن منطق أرسطو ، وقف عاجزاً عجزاً تاماً ، عن بيان الخطأ والصواب في
آراء هؤلاء للتطقيين .

إلام يرجع هؤلاء للثبوت من آرائهم ؟
إنهم يرجعون إلى أدلة عقلية يسهل جداً هدمها عقلياً ، كما يسهل جداً هدم
الهدم .

لقد قام الإمام الغزالي بعمل عظيم مثلاً في كتابه « تهافت الفلاسفة » ، إنه في
هذا الكتاب : هدم آراء الفلاسفة ، رأياً ، رأياً ، فانهارت تحت قلمه ،
وسقطت في ضوء بيانه .

ولقد استغرق هدم الآراء ما يقرب من خمسة وتسعين في المائة من
الكتاب .

أما الخمسة في المائة فقد أبان فيها الإمام الغزالي الأساس الذي قام عليه
الكتاب ، وهو بيان أن العقل الإنساني ، لا يتأق في عالم الإلهيات والأخلاق ،
إلا مظنيات تصل إلى البقين .

وذلك العقل غير مؤهل للبحث فيها ، وأصبحت بذلك مجالاً للبحث
المستمر .

ومضى الزمن - في طريقه - بعد الغزالي حتى نشأ ابن رشد فأخذ يهدم آراء
الإمام الغزالي في نقد الفلاسفة ، وكان أبرع رد على ابن رشد أن عمله هذا إنما
كان تأييداً للإمام الغزالي أكثر مما كان هدماً له .

وإن كل من يتأمل قليلاً في الموضوع يرى أن رأى الإمام الغزالي هو أن
العقل الذي يبنى هو العقل الذي يهدم .

إن ابن رشد بعلمه هدم نفسه ، وأيد موقف الإمام الغزالي ، ويمضي الزمن فيجيء ديكارت .

ويزعم ديكارت أنه اخترع مقياساً للفصل بين الخطأ والصواب .
ويؤكد ديكارت أن الإنسان لو اتبع في تفكيره المقياس الذي اخترعه خطوة خطوة فإنه لا مناص سينتهي إلى الصواب ، وستكون ثمرة السير مع المنهج الديكارتي : اليقين .

وكان أول دليل واضح على خطأ ديكارت هو ظهور الخطأ البين في آراء ديكارت بالجانب المادي ، والتي هدمتها التجربة بصورة لا شك فيها .
أما آراؤه المعنوية فقد خالفه في الكثير منها أساطين الفكر وعباقر الفلسفة .
وكان منهج ديكارت أملاً عذياً ، ولكن البحث أظهر أنه سراب وليس بماء .

وانتهى الأمل في منهج ديكارت كما انتهى الأمل في منطق أرسطو ، وبقيت المسائل التي بحثت قبل الميلاد كما كانت :

- ١ - ظنية .
 - ٢ - مجالاً للبحث .
 - ٣ - مختلفاً فيها .
 - ٤ - الآراء فيها متعارضة من إنكار مطلق إلى إثبات مطلق .
 - ٥ - عجز العقل عن الحمل وعن الوصول إلى اليقين .
- إن العقل له دوره الكبير الهائل في الحضارة المادية ، بل إننا لا نعدو الصواب حينما نقول : إن الحضارة المادية بأكملها من الإبرة إلى الصاروخ ، ومن وابلور الغاز إلى البوتوجاز ، وإلى آلات الكهرباء من عمل العقل .

وعلى العقل قامت الحضارة المادية من أساسها .
ولكنه - إذا استقرأنا تاريخ الفكر النظري البحت - عجز عجزاً تاماً عن
دور مشر .

إن هذا الذي نقرؤه في تاريخ الفكر البشرى عن عجز العقل في مجال
العقائد ، وفي مجال الأخلاق ، يدل في صورة سافرة على أن كل من يأمل أن
يصل إلى يقين عقلي في ذلك ، فإنه مغرور .
ومن الغريب أنه برغم بدهة هذا العجز فإنه مازالت البشرية تسير في هذا
الطريق المغلق .

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب
عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ^(١) ﴾ .
﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ، ثأني
عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب
الحريق ^(٢) ﴾ .

ولكن : كيف نصل إلى الحق في هذه المجالات ؟
إن الله سبحانه وتعالى - وهو الحكيم الخبير - قد تفضل على عباده فهداهم
إلى الحق في هذه المجالات على ألسنة رسله الذين تتابعوا الواحد تلو الآخر ،
هادين إلى الله ، مبشرين بالحق ، داعين إلى صراط الله ، حتى إذا انتهت
حكمته سبحانه بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً للنبيين ، وخاتماً للرسل
تكفل سبحانه بحفظ الرسالة ممثلة في القرآن الكريم .

(١) الحج آية : ٣ و ٤

(٢) الحج آية ٨ و ٩

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

وكأنه سبحانه وتعالى يقول :

لقد أرسلت لكم رسولا دائماً ، هو القرآن الكريم الذى ضمنت حفظه ،
ولستم فى حاجة إلى إرسال بعده ، فرسالته مستمرة أبدية خالدة .

إنها الصراط المستقيم .

وهى الهداية الدائمة .

وهى بالأسلوب الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل
من حكيم حميد .

فاهتدوا بها ، وتمسكوا بالحق الذى ترشد إليه :

﴿ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا
قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان
يدعوهم إلى عذاب السعير﴾^(٣) .

وبعد : فيقول الله تعالى :

﴿ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾ .

وهذا الكتاب إنما هو تفصيل وتوضيح لما سبق .

وما أظن أننى فرحت فى يوم من الأيام بظهور كتاب لى بمقدار ما فرحت
حين ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى .

وذلك أنه يعبر عن منهجى الخاص فى حياتى الفكرية : منهج الاتباع .
وأنا أسير فى هذا المنهج تبعاً لتوجيهات القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة .

(٣) لقمان آية : ٢٠ و ٢١

وهذا الكتاب يشرح وجهة نظري ، وهي وجهة نظر وجه إليها القرآن
الكريم ، ووجهت إليها السنة السنة شريفة ، وسار على سبيلها أئمتنا الهداة
المهديون .

وهو كتاب أقرب به إلى الله سبحانه ، وأرحوه سبحانه أن يهدي له وأن
يهدي به وصي الله وسلم على الأموة لحسة ولقدوة الربانية سيد ولد آدم
الشهيد الذي رحو شفاعته يوم لا ينفع مال ولا نول إلا من أتى الله بقلب سليم .

القسم الأول
في الفلسفة

الفصل الأول

القرآن هاد للعقل

يجلو لكثير من الناس أن يتحدث عن موقف القرآن من العقل ، ويدكر في بحثه أو محاضراته :

إن القرآن هو كتاب العقل ، وأنه أكمله دعوة صارحة لتحرير العقل من عقاله ، وأنه يدعو ، عبارات تختلف في أسلوبها وتتحد في معناها ، إلى استعمال العقل وورب كل شيء بمبراه ، وأنه بترك لنا الحرية في أن نعتقد ما يرشد إليه عقل ، وأن نتبع السيل الذي يبره مطلقاً أو يهدينا إليه تفكيرنا .

وهم في هذا : يؤمنون في إخلاص . أنهم يخدمون الدين بموقفهم ، ويؤيدون القرآن بيمانهم ، ويعتبرون ذلك سقاً فريداً في المداهب ونظماً من سعة الأفق لاتصل إلى سموه العقائد السابقة ، أو المعاصرة .

وهم لا يلقون القول ، دون أن يستندوا في آرائهم على الآيات القرآنية نفسها ، وعلى موقف المسلمين أنفسهم ، في تاريخهم الطويل ، من الفكر الإنساني ومن المفكرين الذين اتبعوا منطقهم وتمكيرهم الخاص

ومن الآيات التي يستدلون بها ، والتي يتقدمون بها كشاهد : الآيات الكريمة التالية :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا ، بَلْ نَحْنُ عَلَىٰ آثَارِهِم قَائِمُونَ ﴾^(١) .

﴿ وَلَقَدْ دَرَّسْنَا لَهُمُ الْحَمِيمَ كَثِيرًا مِنَ الْحَقِّ وَالْإِسْلَامِ لِيَفْقَهُوا بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾^(٢) .

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَٰذَا الْحَدِيثُ فَغَاوُوا فَيَكُونُوا مِنْ يُضِلُّونَ ﴾^(٣) .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ مَنْ شَاءَ فَيُثَبِّتُ مِنْ شَاءَ فَيُكْشِرُ إِنْ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ دَرَجَاتٍ حَاطًّا بِهِمْ سَرَاجَهَا ، وَإِنْ يَشَاءُ يُغَاسِقْهُمْ لَيْلًا مُنِيرًا كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بِالشَّرَابِ وَبِالْمَنَاقِبِ الْمُتَقَاتِلِينَ ﴾^(٤) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَحْدَثْنَا فِيهِمْ مُنْجِيَةً قَالُوا هَٰذَا هِيَ الَّتِي كُنَّا عَلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَىٰ أُولَٰئِكَ لَئِيْلَ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٥) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا سَبِيلُنَا سَبِيلُ آبَائِنَا وَإِنَّا لَهُمْ قَائِمُونَ ﴾^(٦) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا سَبِيلُنَا سَبِيلُ آبَائِنَا وَإِنَّا لَهُمْ قَائِمُونَ ﴾^(٧) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا سَبِيلُنَا سَبِيلُ آبَائِنَا وَإِنَّا لَهُمْ قَائِمُونَ ﴾^(٨) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا سَبِيلُنَا سَبِيلُ آبَائِنَا وَإِنَّا لَهُمْ قَائِمُونَ ﴾^(٩) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا سَبِيلُنَا سَبِيلُ آبَائِنَا وَإِنَّا لَهُمْ قَائِمُونَ ﴾^(١٠) .

(١) البقرة : ١٧٠

(٢) الأعراف : ١٧٩

(٣) الأعراف : ١٨٥

(٤) الكهف : ٢٩

(٥) المؤمنون : ٦٤ - ٧١

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَرْسَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَشْع ما وُحِدْنَا عَلَيْهِ آتَاءَنَا ، أَو لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾^(٦) .

﴿ وَجَعَلُوا لِلْمَلَائِكَةِ أُنْدِيَةً هُمْ عِمَادُ الرَّحْمَنِ إِبَانًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبَّ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْتَلْثُونَ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا هُمْ بِدَلِيلٍ مِنْ عِلْمِ إِيَّاهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَحِدُنَا آتَاءَنَا عَنْ أُمَةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي فِرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَحِدُنَا آتَاءَنَا عَلَى أُمَةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أُولَئِئَا هِيَ جُنُودُكَ يُبَاهِي بِكُمْ وَوَحِدْنِي بِكُمْ وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آتَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾^(٧) .
هذه الآيات الكريمة ، بل والقرآن في حمته ، ولأحاديث الشريعة في جملتها ، وتاريخ الإسلام ، إن كل ذلك يدل حتماً يروى على أن الإسلام دين العقل .

وإذا ما تساءل الآن عما يعنون بقولهم إنه دين العقل ، أجابوا بأنه يحكمهم إلى العقل .

ويروى بذلك أنه يحكم العقل في المسائل والمبادئ وأنواعه وينتهي ذلك لاماً ، بأن يكون العقل هو القائد وليس الدين ، وذلك قرب للأوضاع ونحراف عن الصراط المستقيم ! !

أما الصراط المستقيم : فيما يتعلق بصلته بالدين والعقل فهو :
١ . أولاً : جاء الدين هادياً معقلاً في مسائل معينة ، هي أولاً ، ما وراء الطبيعة . أي العقائد الخاصة بالله سبحانه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ،

(٦) لقول : ٢١

(٧) الزخرف ١٩ - ٢٤

وباليوم الآخر ، وبالعيب الإلهي ، على وجه العموم .
 وثانياً : في مسائل الأخلاق أى الخير والفضيلة ، وما يسعى أن يكون عليه السلوك الإنسانى ليكون الشخص صالحاً .
 وثالثاً . في مسائل التشريع الذى ينتظم به المجتمع وتنعده الإنسانية .
 وجاء الدين هادياً للعقل فى هذه المسائل بالدلائل ، لأن العقل إذا بحث فيها مستقلاً بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع .
 ومعنى ذلك ، أنه لو تراى الناس وعقولهم فى هذه المسائل فإياهم يختلفون ويفرقون فرقاً عديدة ، وبسارعون ، ولا ينهى الأمر بهم إلى الوحدة والانسجام . ولا إلى الهدوء والعلمانية .

٢ - وجاء القرآن : يهيمه العقل فى المحكم فيه ، ولا ياقض العقل فى المتشابه منه : ذلك أن القرآن :

﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم ريح فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء لفظة وانحاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (٨) .

وقد أراد للإسلام من المسم أن يستمسك بالمحكمات استمساكاً تاماً ، وأن يعتصم بها اعتصاماً كاملاً :

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٩)

وأن يسلم الأمر لله فى متشابهه ، اللهم إلا إذا فتح الله عليه بواسطة لإلهام

(٨) آل عمران : ٧

(٩) آل عمران : ١٠١

للإلهي عن شيء من أسرار هذا المشابه الذي لا يباقي العقل ولا يتعارض مع
مبادئه

٣ - وجاء لقرآن حاسماً لا يتردد ولا يفر التردد ، ولا يتشكك ولا يقر التشكك
وكان الأمر كذلك لأنه جاء بالحق . الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولاس خلفه ، الحق المعصوم ، لقد جاء بالحق العاقل المعقول ، الحق المتزن
والمرور . لقد جاء بالحق الذي كل ما عداه باطل . وقد تركز الحق في مسائل
الدين بين دفتي هذا الكتاب الموحى ، وفيما أحبره الرسول صلوات الله وسلامه
عليه ، شرحاً له وتفسيراً وإبائه . وعنى من أسلم أن يتبع هذه المبادئ أو هذا
الحق اتباعاً لا تردد فيه ولا انحراف عنه .

٤ - وجاء القرآن لا يستشير الإنسان في شيء ، وتعالى الله عن أن يستشير
المخلوق ، وتعالى الرب عن أن يستشير المربوب ، وتعالى العليم الحكيم عن أن
يحتكم إلى لشر أو يحكمهم فيما أنزله إليهم هداية وتربية .

هد هو موقف الذين من العقل : وهو موقف يقرنا عليه كل من له شعور
ديني سليم ، وهو موقف ترشدنا إليه الآيات السابقة نصها . ونأخذ منها
كمثال عام - قوله تعالى ، لرسوله ﷺ :

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ . إما اعتدنا
للظلمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهين يشوي الوجوه
بشس الشراب وساءت مرتفعاً^(١٠) .

في هذه الآية الكريمة : يأمر الله سبحانه وتعالى ، رسوله ﷺ أن يحذر أن
مأثي به إنما هو الحق ، وإذا كان هو الحق : فإن كل ما عداه باطل ،

(١٠) الكهف آية : ٢٩

وما من ريب في أن كل شخص يعمل فكره ويحبل نظره ويتأمل في هذا الحق .
فإنه لا محالة - يد، أحصى سينتهى بالاعتراف والإقرار والإيمان
أما من أصرب عن ذلك صمغاً وتبع الآباء والأسلاف ، لمجرد أنهم آباء
وأسلاف فإن مثله . كمثل البهمة التي تسير وراء أصحابها لمجرد أنهم يقودونها ،
وتتبعهم لأهم يسرون أمامها .

ومن شاء من الناس أن يؤمن بهذا الحق الذي ليس بعده إلا الباطل
فليؤمن به وليسع الهدى الهادي ، ومن شاء أن يكفر ، حق ويتبع الباطل معرضاً
عن الحق : فله ذلك ، ولكن ليعلم أن الله سبحانه : أعد لمن يتبع الإيمان :
﴿ نَارًا تُحَاطُ بِهِمْ سِرَاقَتُهَا وَإِنْ اسْتَعِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ
بِشْرِ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (١١)

والقرآن دين العقل بهذه المعاني فهو :

هادٍ للعقل ، ومرشد له ، وقائد

وهو مبادئ يفهمها العقل في سهولة ويسر .

وهو لا يناقض العقل .

وعلى العقل أن يلجأ إليه في كل ما أتى به .

هـ عَنِ أَنْ الْقُرْآنَ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ تَزُلْ لِيَقُودَ الْإِنْسَانِيَةَ نَحْوَ الْكَمَالِ

الروحي ، ولإنسان إنسان بأخائب الروحي منه ، وكلما سما الإنسان روحياً .
كان أعلى في معنى إنسانية

والمعنى الروحي ، ووسيلة المعنى الروحي . لاسيما إلى تحديدهما من الإنسان

نفسه ، وإعما تحديدهما موكول إلى الله سبحانه : ذلك أن اسم الروحي قرب

من الله تعالى - وإذا لم يكن قريباً من الله فليس سموً روحى والقرب من الله ، أو تعبير أدق ، تقرب الله للإنسان ، إنما مرجعه • هدفًا ووسيلة ، هو الله نفسه .

وكل من حاول أن يتخذ طريقاً آخر فإنما يحرق وراء مراب .
والعاية والوسيلة • حددها الله في كتابه الكريم ، إنه حددهما ، بالأسلوب الإلهى نفسه ، أى أن لتعريفيهما - التعبير نفسه - إنما كان من الله سبحانه ، ومن فضل الله على المسلمين ، وعلى اللغة العربية أن كانت وسيلة بهم الإسلام : هى التعبير الإلهى بما فيه من دقة كاملة ، وجمال معجز ، وكمال غير منقوص .

ومادام الأمر كذلك فليس للعقل إلا التسليم والخشوع والخضوع ، أو بتعبير أدق ، السجود .

وهو ليس سجوداً تعسفاً أو تحكيمياً ، وإنما هو سجود مصدره الإيمان اليقضى بأن هذا من عند الله ، ومادام من عند الله ، فإنه لا يأنه الناطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تريل من حكيم حميد ، ولأنه أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

من ذلك نتبين أن الدين هاد للعقل ، وأن العقل يجب أن يخضع ويسجد للوحى الإلهى .

ونعود من جديد إلى المسألة التى بدأنا بها الحديث ، نعود من جديد إلى مسألة القرآن والعقل ، سيقولون ولكن القرآن يطالب دائماً بالتفكير والتدبر •
﴿ فاعتبروا بأولى الأنصار ﴾ (١)

﴿بَنَ فِي ذَلِكَ لِدَكْرِى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلَّنَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (١٣) .
 وينعَى على المشركين التقيد وبتهمهم في اتباعهم آباءهم فيساءل .
 ﴿وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٤)
 وكثيراً ما يجد الآيات تحم . ﴿أَفَلَا تَعْقِنُونَ﴾ ، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ،
 ﴿أَفَلَا نُنصِرُونَ﴾ . . . وكل ذلك يدل على أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال
 العقل .

والواقع أن القرآن لا يستشير الإنسان في أية قضية من القضايا التي جاء بها
 الوحي ، ولا يحتكم الوحي إلى الإنسان باعتباره حكماً ، في أي مبدأ من
 مبادئه ، ولا يصيب منه مشورة في أية قاعدة من القواعد التي شرعها ، من هذه
 الأوهام لا تدور بخلد المتدين قط .

ذلك أن الوحي برل على أنه رسالة السماء الهائية إلى العالم ، ونزل يبع
 أن هذه الرسالة : صدق كلها ، حق جميعها ، ليس فيها مبدأ مشكوك فيه ،
 ولا قضية تحتل الصدق والكذب . وليس فيها جملة رائدة ، ولا كلمة ليست
 في موضعها ، ولا حرف كان يحس ألا يوجد ، كلا إنها الحق الخالص ، من
 اتبعها فقد اهتدى ، ومن حاد عنها فقد انحرف ، ومن ابتغى الهدى في غيرها
 أضلّه الله ، ومن تركها من جبار قصمه الله ، لأنها صراط الله المستقيم وبوره
 الألأء .

وكل ما ذكره من التذكير والنظر والتدبر : إنما أراد به الاعتبار ، وأراد أن
 يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق ، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير ، أما

(١٣) ق آية ٣٧

(١٤) البقرة : ١٧٠

إذا رأيتم غير ذلك ، فإنما العيب في بصركم أو في بصيرتكم . إذا رأيتم غير ذلك ، فإن السواد في عقولكم وفي تفكيركم ، وإذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم فسدت لانحرافكم وأن قلوبكم ران عليها الإثم ، فصلت ، وأن عقولكم قد صدئت ، فأصبحت لا ترى الحق حقاً ولا الخير خيراً وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شراً والشر خيراً ، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم

إن الله - في عظمته وجلاله ، سبحانه - لا يلقي رسالته ليبحثها الإنسان ويبدى فيها ربه نبياً أو إماماً ، سبأً أو إماماً ، كلا ، بل كل من توهم ذلك فإنه لا يقدر الله حق قدره وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما أنقأها سبحانه بسبع ، ولتبع في خضوع وسجود ، ولتبع دون حرج يحبك في الصدر ، أو شئ يحول في النفس :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (١٥) .

وكل من وجد في نفسه حرجاً من قضايا الدين ، وكل من لم يسلم تسليماً كاملاً مطلقاً تاماً ، كل من كان كذلك ، فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه ليصححه ، وليتوب إلى الله توبة نصوحاً ، وباب الله مفتوح للتائبين ، آماء أبيل وأطراف النهار ، وفي كل لحظة .

كان سلفنا الصالح يترعون هذه التزعة . برعة الخضوع المطلق لما جاء به الرسول ﷺ ، لقد كانوا يسجدون لنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم ، وأرواحهم ، وعقولهم . لقد كانوا يخضعون عقولهم لنص ، ويجعلونه لقائد ،

الحكم المهيمن . وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيهم في النص إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل لبشرى في النص ، وكانوا يعرفون أن الوحي إنما جاء هادياً للعقل وقائداً له في الأمور التي لا يتأتى للعقل أن يبلج مياديبها ، أو يقتحم حياها ، أو يدلى فيها برأى ينق عليه الناس . وهذه المياديب هي الدين . والدين ليس رأياً بشرياً ، إنه تنزيل من حكم حميد وكل موقف من الشخصية الشريفة تجاه النص سوى موقف السجود له : إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلهياً إلى أن يكون بشرياً ، ولو كان يستقيم الأمر على ذلك لما كان هناك من حاجة إلى الدين .

يروى أبو داود والدارقطني عن سيدنا علي رضي الله عنه قال :
 « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه ، لقد رأيت رسول الله ﷺ ، يمسح على ظاهر خفيه » .
 إن الدين ليس رأياً ، وليس بالرأى ، وانظر إلى الحديث التالي : إنه معبر أقوى ما يكون التعبير ، دقيق في مغراه دقة بالغة .

عن البراء بن عازب ، رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ :
 « إذا أتيت مصححك ، فتوضأ وصبوك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وهوصت أمري إليك ، وأجأت ظهري إليك ، رعة ورهة إليك . لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أرسلت ، ونيك الذي أرسلت ، فإن مت في ليلتك ، فأنت على العطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به ، ورددتها على النبي ﷺ ، فلما بلغت آمنت بكتابك الذي أرسلت ، قلت : ورسولك قال : لا . ونيك الذي أرسلت » رواه الستة .

وراد البخارى والترمذى : « فإن مت فى ليلتك مت على العطرة ، وإن أصبحت أصبحت خيراً » .

إن الصحابى الحليل : البراء بن عازب ، رضى الله عنه ، قال : « رسولك » بدل أن يقول : « نبيك » . وكلمة « رسول » تتضمن معنى النبوة ، وهى إذن فيها المعنى وريادة ، وبحسب منطقنا ، وبحسب عقلنا تكون صالحة . ولكننا : لا نرى بعقلنا ومنطقنا إلا الشكل والظاهر . أما بواطن الأمور أما أسرار الكلمات أما حكمة الأوضاع المحددة ، أما اكتناه خفيا التقديرات الإلهية ، إن كل ذلك - إذ لم يكشف الله عنه ، أو عن بعضه - فإننا لا نصل إليه بمطوق البشر . ولقد أخطأ البراء بن عازب رضى الله عنه فى استدال كلمة رسول بكلمة نبي وأحطأنا معه حينما قدرنا بعقولنا أن هذا البدل يصح . ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (١٦) .

واكتناه سر هذا القدر اكتناها تماماً لا يصل إليه الإنسان ، بل لا تصل إليه الملائكة : ﴿ وعلم آدم لأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أبعثوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالو سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (١٧) .

إن العلم الصحيح الصادق فى عالم الهداية الإلهية ، والتربية الربانية : إنما هو من الله سبحانه وكل ابتعاد عنه ، أو خروج عليه ، أو تغيير فيه إنما هو صلال .

وما من شك فى أن الإنسان مد أن وجد على ظهر الأرض : يحاول أن يتزع

(١٦) القمر : ٤٩

(١٧) البقرة : ٣١ ، ٣٢

نزعة بشرية عتة ويتصرف في لوعي الإلهي نقصاً وريادة ، وبتراً وإضافة ،
وتعكيراً وتبديلاً ، ويحاول أن يفهم كل ذلك على قواعد يزعمها صحيحة
مقول مثلاً : إن الحكمة في تحريم شرب الخمر إنما هي المصاد التي تنشأ من
الشخص لشارب ، فإذا ما انتفت تلك المفسد فلا مانع من شرب الخمر
والتكاليف الدينية إنما جاءت لإصلاح الصمير ، فإذا كان الصمير صالحاً
فلا بروم للتكاليف الدينية .

وأعمال العبادة إنما هدفها اقرب من الله ، فإذا حصل القرب فلا حاجة
ليها .

وهكذا يخرج الإنسان بأهوائه ، ولا يقول بعمله - لأن كل ذلك أهواء
بصورها الشيطان مطلقاً معقولاً - عن الدين ، كما خرج إبليس قديماً بأهوائه
التي تمتلئ لديه مطلقاً - عن الدين .

والإمام الغزالي رضي الله عنه يمثل لذلك بمثال معبر في قصة رجل
ي له أبوه قصرأ على رأس جبل ووصع فيه شجرة من خشب طيب الرائحة ،
وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، ألا يجلي هذا القصر عن هذا الخشب
طوال عمره

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من نيل أو سهار إلا وهذا الخشب
فيه ، فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين ، وطلب من البر والبحر وتاداً
من نعود ولعبر والمسلك ، وجمع في قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من
الرياحين الطيبة الرائحة

فانعمرت رائحة الخشب لما حاجت هذه الروائح .
فقد : لاشت أن والدي ، أوصاني بحفظ هذا الخشب إلا لطيب رائحته

والآن قد استغنيا هذه الرياحين عن رايحتهم فلا فائدة فيه الآن إلا أن يفتيق على المكان ، فرماه من القصر .

فلما حلا القصر من الخشب ، طهر من بعض ثقب القصر حية هائلة ، وصرت ضربة أشرف بها على اهلاك ، فتسه حيث لم ينفعه التنه : أن الخشب كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة ، وكان لأبيه بالوصية بالخشب عرصان :

أحدهما . انتفاع الولد برايحتهم ، وذلك قد أدركه الولد بعقله والثاني : اندفاع الحيات المهلكات برايحتهم ، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاعتر لولد عما عنده من العلم وحس أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال : ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ .

وقال سبحانه ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾

والغرور من اعتر بعقه فظن أن ما هو متف عن علمه فهو متف في نفسه .

ومامن شك في أن آراء الملل وكل مذهبها من الأوضاع ليس سبيلها أن يمتحن بالآراء والروية والعقود الإنسانية^(١٨) ، لأنها أرفع رتبة منها ، إذ كانت مأخوذة من وحى إلهي ، لأن فيها أسراراً إلهية تضعف عن إدراكها العقول الإنسانية ولا تلعبها .

وأيضاً . فإن الإنسان إنما سببه : أن تعيده الملل بالوحى ماشأه ألا يدركه بعقه وما ينجز عقله عنه وإلا فلا معنى لوحى ولا فائدة إذ كان إنما يعيد الإنسان

(١٨) انظر كتاب : إحصاء العلوم للعارفي

ما كان يعلمه ، وما يمكن إذا تأمله ، أن يدركه بعقله ولو كان كذلك لوكل الناس إلى عقولهم ، ولما كانت بهم حاجة إلى نبوة ولا إلى وحى لكن لم يفعل بهم ذلك ، فلذلك ينبغي أن يكون ما تفيدُه المثل من العلوم : ما ليس في صاغة عقولنا إدراكه ثم ليس هذا فقط ، بل ما تستكره عقول بعض منا فإن ما تستكره بعض العقول وتستبشعُه بعض الأوهام قد لا يكون في واقع الأمر منكراً ولا بشعاً .

فإن الإنسان وإن بلغ نهاية الكمال في الإِسَابَةِ^١ فإن متركه عند ذوى العقول الإلهية : العقول التي استنارت بالوحى وسمعت بالمبادئ الإلهية . منزلة الصبي والحدث والعمر عند الإنسان الكامل .

وكما أن كثيراً من الصبيان والأعمار : يستكروا بعقولهم أشياء كثيرة مما ليست في الحقيقة مسكرة ولا غير ممكنة ، ويقع هؤلاء أنها غير ممكنة ، وكذلك منزلة من هو في نهاية كمال العقل الإنسى عند العقول الإلهية التي أفاص الله عليها من نوره وعمرها بإطاماته ، وكما أن الإنسان من قبل أن يتأدب ويتحك يستنكر أشياء كثيرة ويستبشعها ، ويحيل إليه فيها أنها محالة . فإذا تأدب بالعلوم واحتنك بالتحارب : زالت عنه تلك الظنون فيها ، وانقلبت الأشياء التي كانت عنده محالة : فصارت هي الواجبة وصار عنده ما كان يتعجب منه قديماً في حد ما يتعجب من ضده .

كذلك الإنسان الكامل الإِسَابِيَّة ، لا يمتنع من أن يكون يستنكر أشياء ويحيل إليه أنها غير ممكنة ، من غير أن تكون في الحقيقة كذلك^(١٩) ويشرح الشيخ الجليل أبو سليمان المطلق كل ذلك ، في دقة دقيقة ، وفي

(١٩) انظر كتاب إحصاء العلوم لنعراوى .

أسلوب جميل فيقول : « إن الشريعة مأخوذة عن الله ، عز وجل ، بواسطة
السمير به وبين الخلق من طريق الوحي ، وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ،
وظهور المعجزات ، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه ، والغوص فيه ،
ولا بد من التسليم المدعو إليه ، والمسه عليه . وهناك يسقط « لم ؟ » وبطل
« كيف ؟ » وبزول : « هلا ؟ » وتذهب « لو ، وليت » في الريح !

ولو كان العقل يكتب به ، لم يكن للوحي فائدة ولا غناء .
على أن مآزل الناس متفاوتة في العقل ، وأنصاءهم مختلفة فيه ، فلو كما
نستعي عن الوحي بالعقل ، كيف كنا نصنع وليس العقل بأسره لواحد ما ؟
فإنما هو لجميع الناس . ولو استقل إنسان واحد بعقله في جميع حالاته ، وفي
دينه وديانه ، لاستقل أيضاً بقرته في جميع حاجاته . في دينه وديانه ، وكان
وحده في جميع الصاعات والمعارف ، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوعه
وحسه . وهذا قول مردود ، ورأى مخذول . . . (٢٠) .

يقول الشيخ الجليل أبو سليمان المظني :
« إن منزل الناس متفاوتة في العقل ، وأنصاءهم مختلفة فيه » ، ومعنى
ذلك أن هذا إندي يروق لشخص عقلياً ربما لا يروق لغيره عملياً ، ويجب من
أحد ذلك ألا يتدخل بعقل في الدين ، وإلا لاختلف الناس باختلاف عقولهم
وادعى كل أن « هو عبده » بما هو خفي ، وما عبده غيره هو الباطل . وتتح
عن ذلك اتباع كل أهواءه

(٢٠) انظر كتاب اخبار العناء بأخبار الحكماء للقمي

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ ^(٢١) . فتتفرق الأمة ، ونخرج على ما أحبه الله وأمر به

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ^(٢٢) .

وإذا تساءلت الآن : ما هو إذن موقف العقل من الدين ، وموقف الدين من العقل ؟ هاتنا نجمل الموضوع في النقط الآتية .

مرل الدين هادياً لبعض في جميع الأمور التي لو ترك العقل وشأنه فيها صل السيل ، وعجز عن الوصول إلى الحقيقة ، وهذه الأمور هي

(أ) العقائد

(ب) المبادئ الأخلاقية إجمالاً وتفصيلاً .

(جـ) التشريع في فواعده العامة ، وفي بعض تفصيلاته ، وفواعده العامة

لتي تتضمن الخريئات على مر الزمن ، وعلى اختلاف لبيئات

أما الطبيعة والكون من سمائه وأرضه ، ومن حباله وبحاره ، ومن كواكبه وأقماره وشموسه ، أما المادة والطاقة ، أما أعماق البحار وآفاق السماء . . . إن كل ذلك قد تركه للإنسان يدرسه في مصعبه ومعمله بآلاته وأدواته . وحته على أن يحول في ذلك ما استطاع إليه مسيلاً حتى يكتشف من الله الكونية ، وبواميسه الطبيعية ويرى صنع الله الذي أنقر كل شيء ولم يحجر الدين على الإنسان في هذا الشأن . اللهم إلا انواحب الذي يسعى أن يكون شعاره دائماً وهو أن يكون هده من كل ذلك الخير

والإسلام دين العقل بكل هذه المعاني التي ذكرناها

(٢١) الحاتيه ٢٣

(٢٢) آل عمران . ١٠٣

الفصل الثاني

موقف المسلم من الدين السجود

١

يروى الإمام مسلم ، رضى الله عنه ، في صحيحه عن أبي هريرة ربيعة ابن كعب الأسلمي خادم رسول الله ﷺ ، ومن أهل الصفة رضى الله عنه - قال : « كنت أبيت مع رسول الله ، ﷺ ، فأتته بوضوئه وحاجته ، فقال : سلني .

فقلت : أسألك . مرافقتك في الحجة

فقال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال : « أعنى على نفسك بكثرة السجود » .

والسجود إذن مما يعين على ترويض النفس ، لتزكي ، وهو بذلك من

الوسائل التي توصل إلى الحجة .

وفي هذا معنى ، يروى الإمام مسلم أيضاً عن أبي عبد الرحمن . ثوبان

مولى رسول الله ، ﷺ ، قال :

سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « عليك بكثرة السجود ، فإنه لن تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » .
والسجود الذي يريد رسول الله ﷺ صلوات الله عليه في هذه الأحاديث ليس هو مجرد الحركة المعروفة ، وإنما هو - مع هذه الحركة - المعنى العميق في النفس الذي يتمثل فيه حلال الله وعظمته ، ورحمته وودده ، ويتمثل فيه الخضوع ، هذا الجلال ، وهذه العظمة والانقياد المطلق لرحمة الله التي تتمثل في الرسالة الإسلامية : أوامرها ونواهيها .

ذلك أن الرسالة الإسلامية ، في تكاليفها سلباً وإيجاباً ، إنما هي رحمة للعالمين يقول الله تعالى - لرسوله - صلوات الله عليه .
﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾^(١) .

فإذا ما كان السجود تعبيراً عن النظام والتذلل - وذلك معناه الصحيح - كان ذلك عبادة ، وخضوعاً لله سبحانه وتعالى وكان بذلك سبيلاً إلى الحق ، وإلى أكثر من الحق . وهو اقرب من الله ، يقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ويقول ، صلوات الله عليه ، في هذا المعنى :
« أقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو ساجد » .
ولقيمة السجود الكبر . عبر عن الصلاة أحياناً بالسجود ، فصلاة الضحى ، يسمونها « سجود الضحى » .

ومن أجل هذه القيمة أيضاً ، مدح الله من يعبرون عن خضوعهم لآياته واستجاباتهم لأمره ، بقوله تعالى :

(١) الأنبياء : ١٠٧

﴿بِمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢).

والذين هداهم الله ، واحتببهم :

﴿إِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾^(٣)

ومن صفات عباد الرحمن ، التي يزكِّيهم بها أنفسهم :

﴿يُسَبِّحُونَ لَهُمُ سُبْحَانَ وَمِثْلَ مَا أَنشَأَ﴾.

٢

على أن حادثة من الحوادث قصصها القرآن في غير ما موضع منه ، تبين لنا كثيراً مما نتحدث به من المعنى الخاصة بالسجود ، تلك هي حادثة آدم والملائكة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ لِّشَرِّهِمْ مِنْ صُلَاصٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْرُونٍ فَإِذَا سُوِيَتْهُ وَمَضَتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

هذا السأ ، حدث الله الملائكة عن عالم جديد من عوالمه سيرؤه سبحانه ، وأمر الملائكة ، أن يسجدوا له .

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

لم يشك منهم أحد .

وكان من بينهم - مختلطاً بهم - إبليس . وهو كائن يخنف عن الملائكة ، وعن الإنسان ، إبه من فصيلة الحي

(٢) السجدة ١٥

(٣) مريم . ٥٨

كان يعد مع ملائكة ، ويسمع معهم ، حتى لقد كان يلقب (بطاووس العباد) لكثرة عاداته وتمايه في لعباته ، ولكنه لما سمع الأمر الإلهي بالسجود ، لم يسجد : لقد أتى ، والإباء صد السجود ، واستكبر ، والاستكبار ينافي الخضوع ويشهد القرآن عن ذلك في صراحة فيقول .

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾ .

هذه قصة معروفة ، نمر عليها فلا يكاد نغيرها التفاتاً ، بيد أنها جديرة بالتأمل والاعتبار ، والقضايا التي تريد أن تذكرها عظة واعتبار ، وهي في نفس الوقت ذات دلالة عميقة هي مايلي :

١ - لقد صدر أمر إلهي بالسجود ، فاستجاب له طائفة ، فنعموا برضوان الله ، وشذ فرد ، فطرد من رحمة سبحانه .

٢ - إنه طرد لأنه لم يستجب للأمر الإلهي مع عبده بأنه أمر إلهي

٣ - كان عدم استجابته ناشئاً عن كبرياء في نفسه ، وعن تمرد في فطرته

٤ - لم تلغ عبده كبرياءه ، فهي إذن لم تكن خضوعاً ، لأنها لو كانت خضوعاً ، سميت الكبرياء وأرأته ، إنها إذن لم تكن عبادة بالمعنى الصحيح ، لأن العبادة والكبرياء : لا يجتمعان .

٥ - هذا الكبرياء ، كما تمثل في مخالفة الأمر الإلهي ، تمثل في المحاولة التي أرد هذا المتمرد أن يبرر بها موقفه ، مستحداً عظمته وعقله قائلاً .

﴿أما خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ .

ولم يكن هذا إلا مطلق الهوى ، ومطلق الكبرياء ، فسجوده لآدم ، ليس

عبادة له وربما عبادة لله ، لأنه خضوع لأمر الله ، وحسب .

٦ - والموقف السليم ، إذن ، هو ما يرشد إليه روح القصة ، بل تعبيرها : من أنه عند الأمر الإلهي : يجب أن تكون الاستجابة فورية ، وربما كان هذا هو ما ترشدنا إليه في صراحة كلمة : « إذ » في قوله تعالى ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ .

وهذه الفورية طعناً هي في كل أمر بما يناسب وضعه الزماني والمكاني .
٧ - والقضية التي نختم بها هذه القضايا ، أو هذه لمهام استنتجة من القصة هي : أن الله إذا كان قد أمر الملائكة والجن بالسجود للإنسان الأول فليس معنى ذلك إلا التصريح لصريح ، بأن طبيعة هذا الإنسان فيها الاستعداد الكافي للرق في مدارج اسمواروحي ، درجة فدرجة ، حتى تسمو على الملائكة وعلى الجن ، ولا معنى إذن بعد هذا الأمر الإلهي للملائكة والجن بالسجود للإنسان ، لأن يختلف علماء الإسلام في المقاضلة بين الإنسان والملك .

ذلك أن الفيوضات الإلهية على الإنسان لا تنهى إلى حد .

« ما وسعى أرضي ولا سمائي ، وبكر وسعى قلب عدي مؤمن » .

باب الفيوضات الإلهية إذن - مفتوح على مصراعيه ، وانقرب منه ميسور وإذا ما سجد الإنسان لله ، رفعه الله إليه ، وقربه منه ، وغمره برضوانه . أما المبدأ ، الهام ، الذي يريد أن يجعله كل مؤمن نصب عييه ، فهو أن الإيمان ليس معرفة وحسب : ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موحد ، وقد عرف فيما بعد أنه أرسل نوحاً وإبراهيم . ومحمداً عليه الصلاة والسلام . إنه يعرف أن لا إله إلا الله ، ويعرف أن محمداً رسول الله . ويعرف أن عيسى وموسى وبقية الأنبياء

درس الله ومعرفته بهذه المسائل هي من القوة والثبات بحيث تزيد على معرفة كثير من المؤمنين

ولكنه مع ذلك مطرود من رحمة الله . ذلك أن الإيمان ليس معرفة فحسب ، وإنما هو خشوع واستحابة . إنه سجود ، فإذا لم يتأت السجود فلا إيمان . بشهد لذلك قوله تعالى .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ .

لقد كان سعيد بن جبير رضى الله عنه يقول : « ما آتى على شيء من الدنيا إلا على السجود »

أما عيسى بن عبد الله بن عباس ، فقد كانوا يسمونه « السجادة » لكثرة سجوده . وقد كان يكثر من السجود - كما هو المتأدر إلى الدهر - ليكون على النقيض من إبليس .

ونحتم هذه المعاني بقول الله تعالى ، يصف الذين مع رسول الله ﷺ - معه في حال حياته ، وعلى مبادئه الإلهية بعد وفاته :
﴿ سيأهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ .

إنه النور الذي يشرق على جنابهم ، يسجودهم لله ، وهو النور التي ستكون في وجوههم يوم انقيامة من أثر خشوعهم لله

٣

ويتنفي السجود لله مع محاولة تحكيم العقل في أوامره ، سبحانه وتعالى أو نواهيه ، وكل محاولة من هذا القيس ، إنما هي : كبرياء ، وهي : إبليسية .

وإذا كان لا إبليس خلصاء من بني آدم ، فهم هؤلاء الذين يحاولون أن يقوموا بدور إبليس في المجتمع الإنساني : إنهم هؤلاء الذين يرفضون لوحى الإلهى حملة ، أو يحاولون أن يربوا الوحى بميزان لعقل ، فيرفضون ويقبلون ويؤولون ما شاء لهم الهوى ، ويوفقون ، ويوجدون بعقولهم المآرق التى يزعمونها مشكلات نظرية عقلية - ثم يحاولون الفرار منها .

ونخفاء إبليس هم أولاً وبالذات : الملاحدة .

إنهم على نسق اتعير الحارى : إبيسىون أكثر من إبيسى نفسه . ذلك أن إبليس لم ينكر وجود الله ، ولم ينكر بعثاً ولا رسالة ، ولكن هؤلاء أنكروا كل ذلك . فهاقوا رعيهم ، ولكهم تنفوقهم على رعيهم قد أرضوا غروره ، ذلك أنه خاطب الله قائلاً

« لأقعدن هم (بنى آدم) صراطك المستقيم ، ثم لأنسهم من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيماهم ، وعن شمائلهم ، ولا تحبب أكرهم شاكرين » .
ولقد وصل إبليس إلى مراده تماماً فى طائفة الملاحدة .

والإلحاد درجات : وأخس درجات الملحدين لا شك ، بما هى درجة هؤلاء الذين اعتقدوا على حد تعبير الغزالى - : « أن العالم لم يزل موحوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من البطة واسطة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبداً » .

وإذا ما سألت هؤلاء :

« أحلفوا من غير شىء » ، ثم هم الخالقون ؟ » .

كانت حيرتهم فى الإحالة كافية فى البرهة على أنهم لا يتعمون إلا أهواءهم ، وأنهم ليسوا إدين إلا عبيداً لإبليس

وهناك لإلحاد بـإنكار الميث

والإلحاد بإنكار الرسالة .

يبد أن هؤلاء وأولئك ونكم : يصدق عليهم

﴿أقرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وحتم على سماعه وقلمه

وحمل على نصره عشاة لم يهتد به من بعد الله ؟ أهلا تدكرون ؟﴾ .

والصريق الذى ينقد به هؤلاء أنفسهم وقلوبهم إنما هو المادرة بالسجود

لله . لا للهوى المردى ، فيتكشف الله لهم فى كل شىء ، وتظهر لهم آياته فى

الآفاق وفى أنفسهم ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾

وإن من أحدث اختراعات إبليس فى هذا الرمز الحاصر إنما هو المذهب

المسمى ، بالوجودية وهو مذهب يدعو كل إنسان لأن يحقق وجوده حسبما

يرى وتعالى ما يريد ، غير متقيد بعرف ، ولا عادات ، ولا تقاليد ، ولا دين ،

ولا أوضاع يـا كانت ، وهو إذن يهدم نفسه نفسه ، لأنه لا يقوم على أسس

ثابتة ، ولا ينتهى إلى مبادئ حقيقية ، وأحس نشيبه للوجودى هو ما قاله أحد

كبار الكتاب الغربيين .

« إن الوجودى مثله : كمثل الكلب الذى يجرى دثراً حول نفسه ليحمى

نفسه ، فلا هو يدرك ذاته ولا هو يقف عن أخرى ، وهى نعمة يلعبها الكلاب ،

حيما يجدون الفراخ فيلهون بما لا نتيجة له » .

على أن هذا المذهب الوجودى قديم إذ أنه المذهب السوسطاني

اليونانى ، وهو مذهب يظهر دثماً فى عصور الانحلال ، وفى البيئات الممثلة ،

ولا وجود له فى عصور الحد ، ولا فى البيئات الجادة . ذلك أن المجتمعات

الماضبة لحادة ، لا تبيح لأفرادها أن يتشبهوا بالكلاب حيما تلهو الكلاب -

في الجرى وراء أذمائها لمسكوا بها .

فالوحدانية إذن اختراع إبليس ، لإحراج طائفة من البشر عن نطاق السجود لله ، إلى نطاق السجود للأهواء .

حلفاء إبليس ثانياً هم طائفة الملاسفة العقليين الإلهيين .

ذلك أن الفلسفة العقلية - مها حارون المتصنفون تزييف أهدافها وتزيين غاياتها - ليست إلا محاولة تحكيم العقل فيما أتى به الوحي .

وهي من غير ما ريب تريد أن تختزع عقلياً ، ما فرغ منه الوحي في قصاياه ومبادئه ، إنها تريد ابتداع دين عقلي بمحاور لدين الإلهي ، وهذا الدين العقلي يختلف من فيلسوف إلى آخر ، وهو من أجل ذلك يختلف في هذه القضية أو تلك مع الدين الإلهي .

فإذا كانت البيئة متشعبة بالدين الإلهي ، يعمر قلبها الإيمان وتعمر وحدانياتها الهدية . حاول المتفلسفون - في طريقة إبليسية أن يوفقوا بين الدين والفلسفة .

ومعنى هذا : أنهم يجمعون موقف احتراعاتهم لعقلية بالنسبة للدين ، موقف الدلدل ، فيحاولون التوفيق ، فيحطّطهم التوفيق ، فيما يأتون وما يدعون ، ذلك أنهم - قلوبهم وأفتدثهم - هواء .

وإذا كان الاتفاق بينهم لم يتم ، فإن التوفيق بين أهوائهم ؛ وظهورهم ، وشكوكهم وأوهامهم ، وبين الوحي والعصمة ، واليقين والهداية ، إنما هو عمل لا يسير في ركابه إلا أتباع إبليس .

والعلامسة إذن ، لم يسجدوا لله .

أما الطائفة الناشة التي لم تسجد لله ، إلا شكلاً فإياها ، طائفة المعتزلة من

علماء الكلام ، إمام لم يسجدوا لله سجود خضوع وإدعان ، ومدتهم قائم على
محكم العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجسون على الله بعض
الأعوان ، سبحانه وتعالى ، ويكرمونه عليه إتيان بعضها سبحانه وتعالى ، فوضعوا
أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرعين لله سبحانه ، يلزمونه سلباً ويلزمونه
إيجاباً ، ورين هم لشیطان أعمالهم ، وصدق فيهم قول الله تعالى

﴿أفمن رين له سوء عمله ، فرآه حسناً ؟ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من
يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليهم بما يصنعون﴾
ثم إمام حاصو فيما يصح اللين بعدم الخوض فيه : كالدات الإلهية ،
والصفات ، وكالقدر ، وكان لابد - وقد اتبعوا أهواءهم - أن يختلفوا ويتفرقوا
وتذهب بهم الأهواء كل مذهب ، فكانوا فرقاً وأحزاباً شتى ، لا تكاد تدخل
تحت حصر

وكل من هج الهج لعقل في الدين ، في العصر الحاضر ، إنما هو تابع من
أتباع المعتزلة ، ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده ، إنما هي
مدرسة اعتزالية في مادتها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها ،
ذلك أنها تصح قضايا السين . . . في ميران عقها ، فتى وثنت ، حسماً
تقتصيه الأهواء والنزعات .

ولمدرسة العقلية في الدين ، أيا كانت وفي أى مكان وجدت ، وفي أى
زمان نشأت ، لم تسجد لله سجود خضوع وإدعان ، وإنما سجدت لعقل ،
وعدت العقل فتمزقت إلى ما لا يكاد يحصى من الفرق ﴿ومن تبع غير مسل
المؤمنين بوله ما تولى وبصله جهنم وسعت مصيراً﴾
وسبيل المؤمنين ، إنما هو اسجود لله وحده ، وذلك أيضاً سبيل الراسخين

في العلم ، إذ الراسخون في العلم ، هم دائماً مؤمنون ساجدون لأمر الله ، وإليهم
تشير الآية الكريمة .

﴿أمن هو قانت آنء الليل ساجداً وقائماً ، يحذر الآخرة ، ويرجو رحمة
ربه ؟ قل . هل يسوى الدين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يذكر أولو
الآلئاب ﴾ .

ومن الئلهى أن المؤمن الءقئى هو إئس على طرئ نقبض ، ويرسم الله
سءانه وتعالى ، صورة المؤمن فئبئ تعارضها مع كل الصور الإئبسية على
تفرقها واختلافها ، وئبئ عزاء المؤمن عنءه فئقول سءانه .

﴿إنما يؤمن بآئائنا الءئن إذ ذكروا بها خرّوا سءدا وسبءوا سءم ربهم
وهم لا يستكبرّون ، تتعالى ءوسهم عن المصالحع فءعّون ربهم ءوفا وطمعا ومما
رزقناهم ينفقّون ، فلا تعلم نفس ما أنءى هم من قرءة أعئن ، عزاء بما كانوا
يعملّون ﴾

افضل الثالث

الإمام الشافعي والفكر اليوناني

١

روى عن الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، أنه قال :
« ما جهر اناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميهم إلى لسان
أرسطاطاليس » .

هذا النص من الإمام الشافعي ، رضى الله عنه ، يبين لنا أن هذا الإمام
اجبيل ، يفرق ككل دوى البصائر المشرقة بين مصدرين من مصادر
المعرفة ، لكن منها طريقه ومسته ، ولكل منها أسلوبه ووجه ، أو بكلمة
واحدة : (لسانه)

أما أحدهما : فهو المصدر الإلهي ، إنه الوحي
وأما الثاني . فهو المصدر البشري ، عقلياً كان أو حسياً
وللمصدر إلهي ميدانه . إنه عالم العيب ، وعالم الأخلاق
وللمصدر البشري ميدانه إنه عالم الطبيعة ، إنه العالم المادى المحسوس
وحينما تسير أمور الإنسانية على ما يسعى أن تكون عليه ، فإنها تسير نفسها لله
في كل ما يتعلق بالدين ، عقيدة كان أو شريعة أو أخلاقاً .
وتكادح التزاماً لأمر الله في عالم الطبيعة حتى تسهى إلى تسحيه -

بعقلها وتجارها في سبيل إسعاد الإنسانية ، هادفة من وراء ذلك إلى إرضاء الله والدخول في رضوانه :

والمحرف اليوناني عن ذلك كله ، فالتجهوا - في الأغلب الأعم - إلى اللسان المشري ، وكان أرسطو هو النوحة المتقنة الرسم ، تعبيراً عن هذا الانحياز .
نقد أراد أرسطو أن يخلص الطبيعة ، وأن يخلص ما وراء الطبيعة بلسان المشري ، فأندع كل الإبداع تنسيقاً واستجماً ، وأحقق كل الإخفاق صدقاً وانحازاً ، فكان مثله : كمثل اللوحة الرائقة البراقة ، والسراب الخادع . فقاد الإنسانية إلى المحرف هائل ، وإلى اضطراب في الفكر ، وفي لعقيدة لا حد له !

ولقد كان سحره من القوة والنفوذ ، بحيث استمر تباركه بضرب في حجاب الإنسانية إلى الآن . وما من شك في أن أرسطو كان قوة حارقة ، وعقريّة هائلة . ذلك ، وبحسب ، ومعرفة ، ولو لم يكن كذلك لما كان له هذا التأثير العميق إلى الآن ، ونحن ، حين نتحدث عنه ، لا ننكر ، ما فيه من امتياز فطري صقله الكسب والتحصيل ، لكنه يستعمل كل ماله من عقريّة في انزول بالإنسانية إلى الخيرة ، والنقص ، والشك ؟

ومد أن وحد الإنسان ، وحد معه روح من أمر الله ، وهو . الوحي ، يرشده ويهديه ، ويبين له المبادئ ويوضح القواعد ، في مسائل التي لا يصل تفكيره المشري إلى حل فيها ، وهي : مسائل ما وراء الطبيعة ومسائل السلوك الصحيح ، تشريعاً كان ذلك أو أخلاقاً

ولا ريب أن الإنسان منذ أن وحد فكر في الوحي ، يريد أن يعرف العمل والحكمة ، ويريد أن يصل إلى السر ويكتنه انعايات ، وكان يتمرد أحياناً ، كما

فعل ابن آدم الذي قتل أخاه شهوة وحسناً .

ولكن المجتمعات القديمة ، على وجه العموم كانت نحصص لأمر الله ، وتسلم نفسها إليه فيما لم تحط به علماً من عام العيب ، وهما تتفاوت في إدراكه من علم التشريع والأخلاق . فما في عام الطبيعة ، فقد كانت المجتمعات تُعلم بشئون ديارها .

ولما جاء العهد اليوناني لم يكن هناك « روح من أمر الله » فأخذ الإنسان يقيم من نفسه رسولاً ، وإن لم تكن به بالسما صلة ، وأخذ يقيم من نفسه مشرعاً ، وإن لم تأذن به السماء بذلك ، وأخذ تذهب الأخلاق ، وهو أعجز من أن يصل فيها إلى الفيصل الحق .

وكانت نتائج هذه السرعة تسين شيئاً فشيئاً ، ذلك أن كل فيسوف كان يختلف عن سابقه ، وكان مفكر يتعد ، فيما وصل إليه عن الآخرين ولقد اختلف « انكسيمندر » عن « طاليس » ، وحلف « هرفليط » عهما . . . وهكذا إلى أن وصل الأمر إلى أرسطو الذي أراد أن يعصم الدهن عن الانحراف والصلال ، فاخترع المطلق وهو - على حد تعريه - « آلة قانونية تعصم مراعاتها الدهن عن الخطأ في الفكر » بيد أنه بعد أن اخترع المطلق ، وبعد أن أسعمله في عصمته هو ، لاحظ عليه معاصروه ، والدين أنوا بعده ، أخطاء لا حصر لها .

وسواء أكان هؤلاء الدين أعلوا عن أخطائه ، وأبانوا عن نهايته ، محققين أم غير محققين ، فإن تلاميذ أرسطو وأبناء مدرسته ومناصريه رأوا أن الاعتراضات على أرسطو في مذهبه الخاص بما وراء الطبيعة هي من الكثرة والقوة بحيث لا يمكنهم الرد عليها .

إسهم مع ما هم من باع واسع في عالم الفلسفة ، ومع أنهم يعدون من قادة الفكر كانوا أعجز من أن يتمكن الدفاع عن المعجم الأول

وعجزت آلة عصمة الدهن عن عصمة دهن مخترعها ، وعن عصمة دهن أتباعه

ولكن المعارضين على أرسطو لم يقر أحد من كبار انفلاسة هم بالصواب المطلق ، وإنما كانت آراؤهم هي الأخرى ، مثار جدل واعتراض وتحريح ونقص .

وسارت الأمور على هذا السق بعد أرسطو ، كلما جاءت أمة لعنت أحتيا ، وكلما نشأت مدرسة حملت على سابقتها ، بل حملت على كل من سبقها وكشف الرمز ، في تتابعه ، عن الصورة الحقيقية للإنسانية فيها يتعلق بمفهومها على الكشف عن عالم العيب .

لقد كشف الرمز عن أن عام الغيب إنما هو ، حجر محجور ، بالنسبة لعقل الشرى ، فمن يتأني ، بوصفه ابشرى ، أن يظا حماه ولا أن يلح بابه . وتقدر علم العيب عن أن يمسك بمفتاحه أو يكشف عن مساتيره إلا من أذن له الله من نبي مكرم أو من رسول مأذون .

ولكن الإنسان هو الإنسان ، يطر كل فرد من أفرادده أنه سيأتي بما لم نستطعه الأوائل . ويعتقد كل ناه من ثنائيه أنه أنه من الآخرين . وإذا كان الآخرون كل الآخرين قد أحققوا فإن ذلك لا يعنى أنه هو الآخر سيحقق مشهم وكبرياء الإنسان لا حد له ، وحياته لا تقف في سبيله العقبات ولذلك استمر تيار الاخراف الذى قاد الإنسانية فيه أرسطو ، سائراً يتخطى

القرون قرناً بعد قرن ، حتى وصل إلى الحو الإسلامي في عهد العباسيين الأول ، بل قبل ذلك .

وأحد المسلمون يختلفون بعد اتفقهم ، ويتمرقبون بعد تجمعهم
ولاحظ الإمام الشافعي كل ذلك ، وأدرك مكره السر فقال كلمته
الحكيمة العميقة « ما جهل الناس ولا يختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ومبيهم
إلى لسان أرسطو » ولكن كلمته تحتاج إلى بيان أكثر .

٢

« ما جهل الناس ولا يختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ومبيهم إلى لسان
أرسطو » (الشافعي) .

ولسان أرسطو الذي يعنيه الشافعي ، رضوان الله عليه ، إنما هو
الفكر اليوناني في « المنطق » ، وفي « ما وراء الطبيعة » ، وفي
« الأخلاق » .

ولقد بدأ الإسلام بعيداً عن هذه اللسان الشريرة ، لأنه وحي إلهي ، واستمر
المسلمون عشرات السنين لا يعرفون إلا الوحي المنزل ، ولا يصعدون إلا عنه
أما ابتداء دخول الفكر اليوناني في الحو الإسلامي
في المكتبة الإسلامية القديمة تروى في ذلك أخباراً هي أشبه بالأساطير ،
في سداحتها وتورج لشاة تسرب الفكر اليوناني إلى الحو الإسلامي ، وتعمل
لذلك

وهي ، على سداحتها ، وعلى ما تنسه من صورة قد تثير الانتسام ، فإنها
عميقة المعرى ، قوية الدلالة :

يروون مثلاً . أن سب خروج كتب اليونان من أرض الروم إلى بلاد الإسلام إنما هو : يحيى بن خالد بن برمك

وذلك أن كتب اليونانية كانت سلك الروم ، وكان ملك الروم خاف على الروم إن نظروا في كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا إلى دين اليونانية ، وتشتت كلمتهم وتفرق جماعتهم ، فجمع الكتب في موضع ربي عليها بناء مطمئناً بالحجر والجص حتى لا يوصل إليها .

فلما أفضت رئاسة دولة بني العباس إلى يحيى بن خالد ، وكان زنديقا بلغه خبر الكتب التي في لسان سلك الروم ، فصاح ملك الروم الذي كان في وقته ، بالهدايا ، ولا يلتبس منه حاجة .

فما أكثر عيه جمع الملك بطارقه ، وقال لهم إن هذا الرجل خادم العربي . قد أكثر على من هداياه . ولا يطلب مني حاجة ، وما أراه إلا يلتبس حاجة . وأخاف أن تكون حاجته تشق على ، وقد شغل بالي ؟ ؟

فلما جاءه رسول يحيى قال له :

قل لصاحبك : إن كانت له حاجة فليذكرها .

فلما أخبر الرسول يحيى ، رده إليه وقال له :

حاجتي . الكتب التي تحت الساء ، يرسلها إلي ، أخرج منها بعض ما أحتاج وأردها إليه .

فلما قرأ الرومي كتابه استطار فرحاً ، وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان ، وقال لهم .

قد كنت ذكرت لكم عن خدام العربي . أنه لا يحبو من حاجة ، وقد أفصح بحاجته ، وهي أحف الحوائج على وقد رأيت رأياً فاسمعه ، فإن

رصيموه أمصيه ، رين رينم خلافة تشاورنا في ذلك حتى تتفق كلمتنا ،
فقالوا .

وما هي ؟ قال : حاجته الكتب اليونانية ، يستخرج منها ما أحب ويردها ،
قالوا فما رأيك ؟ قال :

قد علمت أنه ما نبى عليها من كان قلنا إلا لأنه خاف إن وقعت في أيدي
النصارى ، وقرءوها كان سبباً لهلاك دينهم ، وتبديد جماعتهم . وأنا أرى أن
أبعث بها إليه ، وأسأله ألا يردها ، يستنوب بها وسلم نحن من شرها ، فإني لا آمن
أن يكون بعدى من يفتري على إخراجها إلى الناس . فيقعوا فيها حيف عليهم
فقالوا : نعم الرأي رأيك أيها الملك ، فأمصه فبعث بالكتب إلى يحيى بن خالد
فلما وصلت إليه جمع عليها كل زبدىق وفيلسوف ، ثم أخرج منها كتاب
« حد اسطق » .

قال أبو محمد بن أبي ريد « دقل من أنعم اسطرق في هذا الكتاب وسلم من
زيدة (١) » .

وتروى هذه القصة على اختلاف في الأسماء ولزم مع اتحاد الخوهر -
على أنحاء شتى ، منها رواه لصلاح الصفدى في شرح لامنة المعجم
حكى . أن المأمون ، لما هادن بعض ملوك انصارى أعلنه صاحب جزيرة
فبرص - كتب يطلب منه حراة كتب اليونان ، وكانت عندهم مجموعة في بيت
لا يظهر عليه أحد فجمع الملك خواصه من دوى الرأي واستشارهم في
ذلك ، فكلهم أشار عيه بعدم تحجيرها إليه إلا بطريقة واحدة فإنه قال : حيرها
إليه ، فادخلت هذه العنوم على دولة شرعية إلا أعادتها وأوقعت بين عباها

(١) من كتاب صون اسطق زالكلام . لسوطى

أما جهل الناس بسبب ميلهم إلى لسان أرسطو وتركهم لسان العرب . فإن معناه يحتاج إلى إيضاح .

وإنه لمن العريب ، فيما سدو . أن تكون المعرفة للجوانب النظرية اليونانية جهلاً ، وأن تكون زيادة العلم بها ، مع ترك لسان العرب . زيادة في الجهل والناس يرون الآن أن الثقافة اليونانية النظرية ، بما هي ثقافة ممتازة لا غنى لمثقف عنها ، بيد أن الميدان الذي تحدث عنه الشافعي ، رضوان الله عليه ، إنما هو : ميدان العيب ، إنه - ما وراء المادة ، ما وراء الكون ، ما وراء المحس . أي إنه الميدان الذي لا يتأتى المعرفة فيه بإنعام النظر وإعمال الفكر ، إذ إن إنعام النظر وإعمال الفكر لا يتأتى إلا في الحالات التي نعدنا فيها الحواس بالأساس وبالأصل الذي ينبى عليه ونستنتج منه ، وسبحث فيه .

وبدون هذا الأساس الحسي والأصل المادي - لا يقوم بناء عقلي ولا رأى نظري سليم . والإلهيات ، أو عالم العيب - على حد تعبير القرآن - ليس مادياً ، وهو إذن : لا يقع تحت المحس ، وليس للمحس فيه مجال وهو ، من أجل ذلك : حجر محجور على العقل يقول ابن عبد البر .
المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

« إن الله . ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر ؟ »
وإذا ما حاول الإنسان إدراك ، أن يصل إلى عالم العيب - عالم المجردات ، بإنعام النظر فإنه يحاول السير في طريق معلق ، إنها محاولة الحاهل ، إنها محاولة نيت على أساس حاطي ، فكل ما تصل إليه من نتائج ، إنما هي محبط وصلال وجهل ، وكما أمعن الإنسان في الطريق العقلي محاولاً معرفة عالم العيب فإنه لا يزداد بذلك إلا حيرة وجهلاً .

ومن البديهي : أن الانحراف في الوسيلة يؤدي إلى الانحراف في النتائج
والأساس المنهار ، لا يبني عليه قصر مشيد ؟ ؟

وقد حاول اليونان : أرسطو ومدرسته ، والمدرسة الأبيقورية ، والمدرسة
الروقية أن يقيموا مذهبهم بما وراء الطبيعة ، على العقل ، وكانت النتيجة التي
أسست إليها هذه المدارس . مجموعة من الآراء المتضاربة المتعارضة ، المتناقضة ،
المتأرجحة بين النفي ، والإثبات ، وبين الشك واليقين .

أيها أصبح ؟ أيها أقوم سيلاً ؟ أيها أهدي طريقاً
إذا أردت الإحاطة عن هذه لأسئلة « عقلياً » وليس هناك من مناص من
الحيرة ، والشك ، والتردد . ثم الوقوف عن بدء الرأي ، فإذا أحصلت لمطلق
العقل ، فليس لذلك معنى إلا الجهل .

وإذا مال الإنسان . إذن ، إلى لسان أرسطو ، إذا انصرف إلى الفكر
اليوناني ، فيما وراء الطبيعة ، أي إذا اتخذ العقل أساس المعرفة في عالم ما وراء
الطبيعة ، فإن معرفته : إنما تكون جهلاً ، وعمه يكون وهماً .

نهاية إقدام انعقوب عقال وغاية سعي العالمين ضلال
﴿عالم اعيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارضى من رسول﴾
والرسول الذي ارصاه الله سبحانه وتعالى وجعله حائماً للرسل وتكفل بحفظ
الكتاب الذي أنزله عليه . هو محمد بن عبد الله صوات الله وسلامه عليه
أرسله الله بلسان قومه ، وهم العرب ، وأرسله بكتاب يتضمن كل ما يحتاج
للإنسان إلى معرفته من عالم الغيب ، وهو كتاب :

﴿أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ .

﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ .

وكشفه عن عالم « ما وراء الطبيعة » إذ : إنما هو كشف الحكيم العليم بما
 ما تمسكنا به فإنما تمسك بالعصمة المطلقة ، بالحق الواضح ، بالصراط المستقيم
 والمعرفة به معرفة صحيحة ، والعلم به علم لا ريب فيه ، والعدول عنه
 إنما هو عدول عن المعرفة إلى الجهل ، وعن العلم إلى الوهم ؟
 أما المعرفة به على وجهها المستقيم فإياها تنافي أصوفاً ما تكون وأسنى ما يمكن
 إذا انصرف الناس إلى لسان العرب :

يقول السيوطي ، في تعليقه على كلام الشافعي ، رضى الله عنه .
 وم ينز القرآن ، ولا أنت السنة إلا على مصطلح العرب ومذهبهم في
 المحاور ، والتحايط ، والاحتجاج ، والاستدلال ، لا على مصطلح اليونان ،
 ولكل قوم لغة واصطلاح ، وقد قال تعالى
 ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه لينين لهم ﴾
 من عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره ، وخرج الوارد من بصر
 الشرع عليه . جهل وضل ولم يصب القصد .
 هذا هو ما عناه الإمام الشافعي بجهل الناس . أما ما عناه باختلافهم ، حينما
 يميلون إلى لسان أرسطو ، فإنه يحتاج إلى بيان .

٣

« ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ومذهبهم إلى لسان
 أرسطو » (الشافعي)
 ولسان أرسطو وهو المكر اليوناني النظري في « ما وراء الطبيعة »
 والأخلاق قائم على العقل . مقدماته وتناحجه .

وليس من المحتم أن يكون لسان أرسطو خاصاً باليونان فقط : فإن كل نزعة في البحث فيها وراء الطبيعة والأخلاق تتحد من العقل أساساً ، وإنما هي نزعة أرسطية ، إنها لسان أرسطو

ولسان أرسطو إذن : عنوان على كل تأليف يقوم على العقل وحده . وأولى المحاولات من هذا النوع حدثت في الإسلام في عهده الأول ، حينما أراد بعض الناس أن يتحدث في القدر بعقله ، فهي الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن ذلك نهياً حازماً حاسماً .

وحدث في عهد سيدنا عمر أن حاول صبيح (على ورن أمير) أن يشير بعض المسائل الدينية . معتمداً على عقده في الجدل والقاش ، فصره أمير المؤمنين بعراحين الحل حتى سال الدم من رأسه ، ورالت مع سلال الدم هو احسه وأهواؤه .

ثم كانت محاولات فردية وبرعت شخصية تقوم وتحمده ، ونتهى عادة بانتهاء أصحابها ، ولكن الأمة الإسلامية في مجموعها كانت تتجه باستمرار إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، تتحد معها قدوة وأسوة ومسارة بهداية والرشاد إنها كانت تفرم على الوحي ، وهذا الاتجاه هو الذي يقابل اتجاه أرسطو . إنه يسمى في الاصطلاح الكلامي بالاتجاه السلفي

وهو الذي تشير إليه وتحت عيه كلمة (إسلام)

فالإسلام : إنما هو إسلام لوحه لله ، إنه الاستجابة التامة لأمره سبحانه به تنمس رضاه فيما يأتي الإنسان وما يدع ، به العزم المصمم على اتخاذ الوحي أساساً ، وعلى الصدور عنه في كل عمل ، وفي كل بية وهناك إذن أساسان مختلفان للعقيدة والسلوك : أحدهما بشري وهو العقل

وهو لسان أرسطو ، والآخر لحي وهو : الوحي .

والوحي لا يوجد الآن في صورته الصحيحة إلا في اللغة العربية ، ولا يتأتى فهمه فهماً دقيقاً إلا بتذوق هذه اللغة والتعمق بها .
والأمثلة التي توضح ما ذلك كثيرة منها مثلاً ما يرويه السيوطي من أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبي عمرو بن العلاء يباطره في وجوب عذاب الناسق ، فقال له : يا أبا عمرو ، الله يخلف وعده ؟

فقال : لن يخلف وعده

فقال عمرو ، فقد قال : وذكر آية وعيد .

فقال : من العجمة أتيت ، الوعد غير الإيعاد ، ثم أشد .

وإني وإن أوعدته أو وعدته يخلف إيعدي ومسحز موعدي
بل إن تنوين اسم في جملة ، وعدم تنوينه في نفس الجملة يجعل المعنى يختلف .

ومما يروونه في ذلك أنه إن قال قائل : هذا قاتل أبي يعير تنوين في كلمة « قاتل » فإن معناها يختلف عن : هذا قاتل أبي تنوين كلمة « قاتل » .
وترك لسان العرب إذن يوقع الناس في الجهل كما يوقعهم في الاختلاف ولا بد لذلك من دراسة لسان العرب وتفهمه ولعمري فيه وتدقيقه ، حتى يتأتى فهم دقائق الكتاب الكريم .

وفهم الكتاب الكريم والصدور عنه إذن هو مقصود الإمام الشافعي من حث الناس على ترك لسان أرسطو ، والعودة إلى لسان العرب ، أي الوحي .
ولقد كانت الأمة الإسلامية سائرة على ذلك طيبة القرن الأول الهجري اللهم فيما عدا الحالات الفردية التي أشرنا إليها من قبل

يبد أن الإنسان بطبيعته نزاعٌ إلى أن يسير في الحياة بتوجيهات بشرية .
وهو لذلك يحاول ابتداء عقيدة يؤمن بها ، واختراع مذهب يعتقد فيه ،
فإذا ما حال دون ذلك وجود عقيدة سماوية وقوية - فإنه يحاول أن يلونها
ببشريته وأن يصعها سرعته وأن يقحم بشريته في ثنائياها : تأويلاتها ، وميلاتها
إلى معصيات رعباته ، وسيراً بها إلى مرضاة هواه .

وهو يفعل ذلك في أعين الأخايين دون شعور سافر منه بما في عمله من
انحراف ، قليلٌ وكثير ، عن الطريق الذي يحبه الله من المؤمنين والذي ركره
سبحانه في كلمة « إسلام » .

ولقد كانت أول محاولة مذهبية منظمة لإفحام البشرية في دائرة الوحي إنما
هي المحاولة الاعتزالية : محاولة واصل من عطاء وعمرو بن عبيد ومن لف لفيها ،
أو هج هجها . وهي محاولة أساسها من غير شك طغيان البشرية ، وغلبة الهوى
وإن ظهر ذلك في صورة من التيسير ممهدة يرى أن عملها خدمة للدين
﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ .

﴿قل هل ننشكم بالآحسرين أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ .

ولأن هذا الاتجاه إفحام البشرية في دائرة الوحي يتلاءم مع الكبرياء
الشري ، ومع لعرور الإنسان ، انتشر المذهب الاعتزالي ، واكتسب أنشاعاً
عديدين ، بل وصل به الأمر إلى أن تساه الملوك والأمراء .

والاتجاه الاعتزالي إذن إنما هو عطف من لسان أرسطو . هو نمط خفيف إلى
حد ما ، ونكهة من غير شك لسان من ألسنة أرسطو . إنه لسان المتكلمين .
والمتكلمون إذن في الحق الإسلامي إنما يعبرون عن نزعة بشرية تقحم نفسها

في الوحي بصورة تحاول أن تكون مقبلة ، ولكنها مهما حاولت أن نحى على الناس ، بل على أصحابها . فإنها لا ينقصها النصوص عند ذوى الشعور الدينى السليم .

وقد ثار على هذا الاتجاه أئمة المسلمين الأصفياء وقادتهم الأنقياء . ثار عليه الإمام الشافعى والإمام مالك ، والإمام أحمد بن حنبل ، والإمام سفيان . بل ثار عليه جميع أئمة المحدثين من أسف ، رضوان الله عليهم وتندع الحديث عن تفصيل هذا إلى مناسبة أخرى ، ولكنت يريد أن نشير إلى النتيجة التى حدثت عن هذا الاتجاه الاعتزالي :

إن بنى البشر يختلفون ذكاء وثقافة ، وبيئة ، وطبيعة ونزعاتهم من أجل كل ذلك مختلفة : فإذا ما أقحموا بشريتهم في الوحي - احتلقت آراؤهم ، وتفرقت نزعاتهم . وتشتت أهوؤهم ، فكانوا شيعاً وأحزاباً .

ولذلك افرقت الأمة ، منذ دخول هذه الترعة ، بعد أن كانت موحدة ، وانقسمت إلى فرق وطوائف تتضارب وتتعارض ، وتتصارع وتتناقض .

وإنه لمن ضحكك الأقدار أن المعتزلة أنفسهم : قد انقسموا إلى طوائف بعدد من ينبغ فيهم من شخصيات ، ولقد وصل الأمر بكل من هذه الطوائف نفسها أن رمت ما عداها بالانحراف والضلال .

وإنه لمن ضحكك الأقدار أيضاً أن يقام على أساس هذه الترعة تراث صحيح يسميه « البشريون » عم الكلام الإسلامى ، أو علم التوحيد الإسلامى ، وما هو من التوحيد في شيء .

وإنه لمن المحزن أن يصيغ صوت الأئمة الأحلاء ، الشافعى ، ومالك وابن حنبل وسفيان ، في وسط الجرى وراء الشريعة .

إن هذا الجري وراء الفكر البشري لسان أرسطو -- قائد المسلمين إلى
الجهل ، لأن الانصراف عن الوحي إلى الفكر الإنساني : إنما هو انصراف عن
علم إلى جهل وقاد الأمة الإسلامية إلى لاختلاف والتفرق بعد الوحدة في
العقيدة والتماسك : لأن الانصراف عن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه وهو الوحي ، إلى ما يحيط ويسحرف ويضل ، وهو الفكر ، إنما هو
انصراف عن مصدر وحدة إلى معث تشعب .
وصدق الشافعي :

« ما جهل الناس ولا اختفرو إلا لتركهم لسان انعرب وميلهم إلى لسان
أرسطو » .

الفصل الرابع

إخفاق الفلسفة

١

إن البحث في هذا الموضوع : يستلزم بخاراً موحداً خاصاً سان بعض الأمور التي تتعلق به . كتعريف الفلسفة مثلاً . وبيان شأنها ومقاييسها التي تلحقاً إليها . لفص الخلاف ، إذا ما ثار ، حول موضوع من الموضوعات ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب إذا ما عرفنا الفلسفة السحنة في وضعها الرهن . بأنها : البحث العقلي في وراء الطبيعة ، وفي الأخلاق ، والبحث في قيمة المعرفة : ومائل ونتائج . وهذا التعريف من المرونة بحيث يصيب ويتسع تبعاً لصيق موضوع الفلسفة أو اتساعه ، في عصورها المختلفة متى نشأ هذا النوع من البحث ؟

ربما لا يكون الإنسان مخاطراً إذا زعم أنه نشأ مع نشأة الإنسان ، نشأ كخطرات تمر عابرة ثم تنتهي ، ونسخ نارة ثم تروى ، وتكثر في فترات محدودة وتقل في أخرى غير أنها في كل أحوالها وطروفيها المختلفة عابرة لا تدوم ، ولكن البحث الفلسفي ، لعن المنظم المرتب المحكم . إنما نشأ في اليونان ، ونشأ في اليونان بالذات لأن الدين اليوناني . لم يكن له من الشات واليقين ، ومن القوة والسيطرة ومن تمكن في المورس ، ولتعمل في الأرواح . ما يجعل الناس

يطعنون إليه ويستسلمون ، هي يختص بالعقيدة أو الإيمان بما وراء الطبيعة ،
وهي تختص بالأخلاق أو تحديد الخير .

والظاهرة الملاحظة في كل الأوساط على مر التاريخ : أنه كلما كان الدين
نقسيًا ثبات ، وكلما كان للإيمان قويا مسيطرًا ، قس لبروع إلى الفلسفة وقل المحث
العقلي في مجالات العيب

أما السبب في ذلك فهو من لوصوح بحيث لا يحتاج إلى بحث عميق ،
وذلك أن موضوع الفلسفة هو نفسه ، على التقريب ، موضوع الدين : فالدين
يجيب ، في احتصار أو في استفاضة عن أسئلة بفلسفة . يجيب عنها في صورة
حاسمة هازمة لا تعرف التردد ولا الشك .

والمؤمن الذي علب عليه الإيمان ، وسيطر على نفسه الدين ، لا يستمع أن
يتحاوزه ويتفلسف ؟
ولماذا يتفلسف ؟

إنه مؤمن ، وإنه مؤمن بقضايا ديه ، ولا يحالجه الشك قط في صحة هذه
القضايا فهل يعقل ، والأمر كذلك ، أن يترك اليقين ؟ أعني قضايا الوحي
المعصومة ، ليحاول عن طريق العقل الشرى أن يدرس الموضوع من جديد ؟
إنه ، إن فعل ذلك ، لمعناه أنه يشك في قضايا ديه ، شاعراً بذلك أو غير
شاعر ، معناه أنه يترك التمسك بهداية الله ، ليتمسك بهداية البشر ، ومعناه أنه
يرك اليقين إلى الطن . لأن نتائج العقل الشرى في مجالات ما وراء الطبيعة ظنية
كلها .

ونشأ التفلسف في صورة نظرية مضمة ، في اليونان لأول مرة في عهدها
بالحصارة الثقافية لصعف الدين فيها ، ولم يشأ التفلسف في البيئات الإسلامية

لأول عهد لها بالتحضر انشاقى لقرة التدبير فى الأمة الإسلامية الناشئة
ودراسة تاريخ الفيلسوف ، وشأته ، والعوامل المؤثرة فيه فى الأمة ليونانية .
والأمة الإسلامية يفيد كل الإفادة ، إذا أردنا ملاحظة ظاهرة الإيمان ،
من حيث القوة والضعف ، وأردنا ملاحظة ظاهرة الفيلسوف من ناحية الازدهار
أو الذبول . فالأمة الإسلامية فى شأته لم تعرف الفيلسوف ، وإنما استسلمت
للدين استسلاما مطلقا .

ومضى القرن الأول بأكملة والمسلمون يتمسكون فى كتاب الله تعالى ، ومنه
رسوله ﷺ ، جميع الحلول للأمور التى تعرض لهم ، والأسئلة التى تنور فى
نفوسهم .

وحين بدعوا فى ترجمة التراث لأحبي - فيما بعد - بدعوا يترجمون الكتب
التي تتصل بالجانب العملى كالطب مثلاً ، أو الكيمياء ، أو ما وراء الطبيعة ، وأما
الأخلاق فإيهم كانوا يتحرجون كل التحرج من ترجمتها اكتفاء وإعراى
عندهم فى ذلك من وحى معصوم .

واستمروا على ذلك إلى أن كان عهد المأمون فبدعوا بأمر منه . يترجمون فى
محال ما وراء الطبيعة ، ومحال الأخلاق ، وبدأ الفيلسوف البحث ، وبدأنا
بتمسك فتور الإيمان كأساس من أسس الفيلسوف وكنيحة من نتائجها أيضا .

وبداية الفيلسوف عند الفيلسوف هى بداية التردد الدينى ، وبداية التوفيق بين
الدين والفلسفة . هى بداية النفاق فى المحيط الفلسفى .

وما من شك فى أن محاولة التوفيق بين النتاج الإنسانى فى محال ما وراء
الطبيعة ، وهو الفيلسوف وبين الوحي الإلهى : إنما هى مهولة من المهارل الكبرى

التي تلجأ إليها الإِسَابِيَّة حينما تريد تعطيَّة اِخْراف صَارِح أَرْضَتْ بِهِ كِبْرِيَاءَهَا
وَعُرُورَهَا ؟ ؟

إن تَقَسَّفَ الْمُسْلِمُ نَوْعَ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُرُورِ ، وَعَطَّ مِنَ الْاِعْتِدَادِ بِالنَّفْسِ
اِعْتَدَاً بِمَجْعَلِهَا لَا تَسْتَسِمُّ لِلْعَبْرِ ، حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْغَيْرُ هُوَ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ
وَالْمَادِيُّ الرَّائِيَّةُ .

وَالْتَوْفِيقُ مَعْنَاهُ أَنْ تَصْعَ الصَّرْفِيُّنَ مَوْضِعَ التَّسَاوَى مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ الْاِعْتِبَارِيَّةُ
ثُمَّ تَبْدَأُ تَحْرُجُ حِدْمَا إِلَى الْآخِرِ تَحْتَ سِتَارِ مِنَ التَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ وَالشَّرْحِ وَعَدَمِ
اِعْتِنَاءِ الْمَعْنَى الظَّاهِرِ وَالْاِلْتِجَاءِ إِلَى مَعَانٍ بَاطِنَةٍ . قَدْ لَا تَقْرَاهَا اللَّفْظَةُ أَوِ الْعَرَفُ
أَوِ النَّظَرَةُ السَّلِيمَةُ .

أَوْ تَحَاوَلْ بِطَرِيقِ حَرْ - أَنْ تَجْعَلَ كَلَامَهَا يَتَنَارَرُ لِلْآخِرِ عَنْ بَعْضِ
مَحَلَّاتِهِ وَبَعْضِ أَلْوَانِهِ ، أَوْ بَعْضِ مَعَاهِيْمِهِ حَتَّى يَنْتَقِيَا وَقَدْ خُتِصِرَ كُلُّ مَعْنَى فِي
حَانِثٍ مِنْ حَوَانِيهِ .

وَمَوْقِفُ الْمُؤْمِنِ الصَّحِيحُ يَتِمَثَّلُ فِي الْمَادِيِّ الَّتِي حَدَّدَهَا الرُّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ تَحْدِيداً تَاماً « اِنْعَمُوا وَلَا تَسْتَدْعُوا فَقَدْ كَفَيْمُ »
لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي « مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ » وَفِي « الْأَحْلَاقِ » مَا فِىهِ كِفَايَةُ تَامَةٌ
لِلْمُؤْمِنِ . وَالْمُؤْمِنُ غَيْرُ مَحْتَاجٍ لِمَا وَرَاءَ ذَلِكَ

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ
دِيناً ﴾

وَأَوَّلُ مَادَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ بِمَا هِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي تَوَحَّدُ مِنْ تَسْمِيَّتِهِ نَفْسُهَا : هِيَ
إِسْلَامُ الْوَحْيِ لِلَّهِ ، وَإِنْقَاءُ اَلْغِيَاذِ لَهُ ، وَالْإِدْعَاؤُ اِلْتِمَامَ مَا حَاجَّ بِهِ ، وَالْخُضُوعُ
اِلْتِكَامَ لَتَعَالِيهِ وَمُسَادَدَتِهِ فِي الْأَخْلَاقِ ، وَفِي مَا وَرَاءَ الطَّبِيعَةِ .

فإذا ما تمرد المؤمن على هذه المبادئ وبدأ يلقي بقياده إلى عقله ، حتى لو كان يريد أن يصل عن طريق ذلك إلى نفس النتيجة التي أتى بها الدين ، فإنه منحرف عن هدى العبودية لله ، إلى هدى العبودية للعقل . وهو يفعل ذلك تقديساً لنفسه ، وذلك نوع من عبادة ابذت أنواع من عرور العقل !
ونأتي الآن إلى نتائج الفلسفة ، فتساءل ناظرين إلى الواقع التاريخي : لماذا الفلسفة ؟ إنها إذا نظرنا إلى النتائج في صورة عامة شاملة وفي صراحة لا تديس بها ، فإننا نجد نتائج الفلسفة تصور تصويراً تاماً لجميع أنواع الضلال والانحراف والوهم والخذاع والريف والباطل ، كما تصور في حلال ذلك الحق والصواب أحياناً ولكن الأوهام في هذه النتائج أكثر من الحقائق : ذلك أن الفلسفة نتاج شخصي يرتبط بالشخص ، من حيث البيئة ، والعصر ، والثقافة ، والدكاء ودرجة التدبير

وهي إذن ، هذه الاعتبارات ، نتاج سبي يتسم بالنسبية مد المدأ ومادام الأمر كذلك فإنه لا ماص من الاختلاف وانتعاص ، والتناقض والبصار !

وعن إذا نظرنا في تاريخ الفلسفة ، منذ شأنها كحد أنه لا يوجد في أي موضوع من الموضوعات ما يمكن أن سمي به بالرأي الفلسفي ، وهذه ظاهرة لها معراها العميق وليس شطط أن يؤكد لإسان أنه لا توجد مسألة واحدة اعتقت آراء الفلاسفة على حل موحد لها .

إن الرأي الفلسفي معدوم في المحيط الفلسفي ، والمسائل التي بدأ قدماء فلاسفة اليونان يبحثون لها عقياً عن حل لا تزال معقدة للآن ، يحاول الفلاسفة المحدثون بعد مصى أكثر من خمسة وعشرين قرناً إيجاد حل لها

ومن سحرية الأقدار بالفلاسفة - أن ما سماه أفلاطون «*دال اللهو* خدى»
وهي المسائل التي وضعها ريمون الإيساى يبرهن بها على أن الوجود ساكن
لا يتحرك ، وملاً لاحلاء فيه ، هذه المسائل التي تتناهى مع بديهية الحس
البدئية ، ومع شعور الفطرة السامر . من سحرية الأقدار أن الفلاسفة :
لا يرالون يحاولون إلى الآن إيجاد حل عقلى لهذه المسائل ، يوفقون فيه بين العقل
والحس ، أو بين المطلق والفطرة السليمة ، محرد الفطرة ، انمطرة في أى مكان
وحدث . . فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً .

من أين ؟ وإلى أين ؟ ولم ؟ لا تزال الآن ، وربما إلى بعد ، بل ربما إلى أن
ينتهى العالم ، معلقة تطلب الحل عقلياً .

وما دام في الفلاسفة من ينكر إنكاراً تاماً ما وراء الطبيعة . ولا يعترف بأخير
العام والفصية المحددة . ومن يشت كل ذلك ، فلا أمل قط في أن يوجد الرأى
الفلسفى

ولكن ، أما يوجد مقياس عقلى يقيس به الفلاسفة الآراء فيهندون بواسطة
إلى لصواب ، وبذلك يروى الخلاف ويوجد الرأى الفلسفى ؟ عن ذلك يريد أن
نتحدث

٢

إن الإنسان يبحث - مد أن وحد - عن الغيب ، ويجرى وراء المجهول إنه
يريد أن يكشف القناع . ويرفع الحجب التي تحجبه عن عالم الغيب ، إنه يريد
أن يصل إلى الله ، ويتصل به اتصالاً مباشراً ، وينغمس بنفسه في عالم الإلهية ،
وينحس بروحه أنوارها ، وكان الطريق أمامه مرسوماً واضحاً ، رسمه الأشياء

عن طريق الوحي ووضع الررس ، عليهم لصلاة والسلام ، لقد صورته
الرسالات الإلهية ، إنه العبودية الكاملة لله ، إنه إلقاء الإنسان نفسه في المحيط
الإلهي ، إنه التحاء العبد إلى الربانية حتى يصير ربانياً ، إنه التخليق بأخلاق الله ،
والوقوف ببابه ، سبحانه ، حتى يتقبه الله ويسخره في حناات المعرفة ، وفي
رياض الحقائق

وسار الأمر على ذلك في الحضارات القديمة

لقد كان هذا النمط هو الذي يسير عليه كهنة عين شمس ، مثلاً ، في
الحضارة المصرية . وكان هذا النمط الذي يسير عليه الراهبة في الديانة الهندية
وكان هذا النمط هو الذي يسير عليه طلاب المعرفة الحق في العصور القديمة على
اختلاف الأرمية والأمكنة .

وما كان يتأتى قط أن يدور بخلد أحد في هذه اختصارات أن يكون هناك
طريق آخر لمعرفة ما وراء الصعقة غير هذا لطريق ، بهم كانوا يرون أن عالم
الغيب من الأسرار الإلهية ، يسمح الله معرفته لمن يشاء من عباده وهو لا يسمح هذه
المعرفة إلا للخواص الذين اتبعوا الصراط المستقيم الذي رسمه الله سبحانه .

فلما كان العهد اليوناني بدأ بـ (الأورفية) التي سارت على نفس الطريق
القديم وبفس الأسلوب شرق في الوصول إلى المعرفة

وتلقت ذلك الأسلوب ، وتلك الطريقة « فيثاغورس » ، « مكنون » المدرسة
الفيثاغورية ، التي رأب أن معرفة ما وراء انطباعه : لا تأتي عن طريق . الدهن
يعمل ، والعقل يفكر ، والخيال يخلق ، كلا ، إنما تأتي عن طريق الطهر
الكامل في الأخلاق والرهق المتصير في المديت حتى لا يصير الإنسان عبداً لها ،
إها لا تأتي إلا عن طريق العبودية التامة لما يح المعرفة وواهب الخير

وقد سارت المدرسة الفيثاغورية على أسلوب الصفاء - كوسية

وعملوا في ذلك حتى نفذ شمل مذهبهم نوع الملابس ولونها ، وهو البياض ، وأنواع المأكولات ومقاديرها ، وأوقات الصيام ، وكميته ، ولقد أسلمت الفيثاغورية عندها إلى الأفلاطونية التي أسلمته إلى الأفلاطونية الحديثة . ولكنه محور هذا الأسلوب في المعرفة الخاصة بعالم الغيب شأن أسلوب آخر ، أسلوب متدع ، أسلوب م يكن موحوداً من قس وهو أسلوب يعد في ذلك الرمز انحرافاً عن الأسلوب التقليدي المعروف .

ذلك الأسلوب : هو محاولة معرفة عالم لعب عن طريق العقل بتروى ، وبمكر ، وبحث ، ليصل عن طريق ذلك إلى الفكرة الصحيحة عن عالم الإله سلباً وإيجاباً ، بدأ سلك طييعيو اليونان فم جاء أرسطو مثل هذا الاتجاه كأقوى ما يكون التمثيل .

وبدأ من ذلك بحير ولأور لحصة الفرق واضحاً بين الأسويين فالأسلوب الأول يؤمن إيماناً تاماً بعالم الإلهية وكل رحائه أن يصل إلى إواره وأن يحصل على قس منه ، وأن يعمس في محيط رحمته .

أما الأسلوب العقلي المتدع ، فإنه لا يؤمن بشيء ، ولا يعتقد شيئاً ، ويعرض تساوى لأمر ، ولا يرجح سلباً ولا إيجاباً ، ويلقى بقاده إلى عقده ، ويستسلم إلى دهنه

ولكنه من العهد الأول لهذا الاتجاه العقلي - لاحظ أصحابه ، ولاحظ الباحثون على وجه العموم : أمرين ، ربما كان أحدهما نتيجة للآخر أما أولهما فإنه هذا الاختلاف التام بين اساحين عقياً ، أو المتفلسفين ، فيما وصلوا إليه من نتائج : أنهم حثلوا حتى مع اتحاد البيضة ، واتحاد لرس '

لقد جهل بعضهم بعضاً ، وخطأ كل منهم الآخر ، وجرم كل منهم ثمة ، هو وحده على الصواب وأن غيره على الخطأ ، واحتقر كل منهم الآخرين ولقد وصل الأمر بالفيلسوف « هرقليطس » أن كان الناس في رأيه على ما يذكر كتاب . قصة الفلسفة اليونانية « قطعاناً من الغنم حقت عليهم الصعة والمهانة ، بل سمح به الكبرياء إلى حتقار أعلام الفكر من أسلافه . » « أكرتوفس » و « فيثاغورس » بكرتان حذيرتان بالإهمال ، و « هوميروس » قدم عبي يجب أن تلهب ظهره عذابات الشياط و « هريود » لا يرتفع كثيراً عن عمار السوق فهو واحد منهم « لا يفرق بين الليل والنهار » فإذا كان منزل قادة الفكر تلك المنزلة . فأي يقف الشعب من نفسه ؟ !

هم « الأنعام تؤثر الكلاً على الذهب » ، وهم « كلاب تسح كل من لا تعرفه » اهـ .

أما الأمر الثاني الذي لاحظته الباحثون ، فهو : أن العقول تختلف من شخص لآخر . وإذا كانت قد وضعت في العصور الحديثة مقاييس سدكاء تشبه أن تكون محدودة ، فإن اختلاف العقول في بني البشر : لا يحتاج إلى ملاحظة مَرَوِّاة . ويمكن إجمال الأمرين في عبارة مختصرة ، وهي : أن اختلاف العقول : أدى إلى اختلاف النتائج

على أن اختلاف العقول في الأمور ينصاع بالمتغيرات الخارجية والبيئة ، والوسط ، والثقافة ، والأصدقاء ، ولحو والمصالح . كل ذلك وغيره : يؤثر ، إلى ما شاء الله في العقول ، ولذا التاج الذي تنتجه .

ومع توالي الزمن نكث المذاهب ، وتعدد الفرق ، وبمكر أن يقال ، بدون مبالغة . إن المذاهب تتعدد بمقدار ما يكون في العالم من ملاحظة عقليين

وبمجرد أن أسفر هذا الأسلوب العقلي ، في معرفة ما وراء الطبيعة ، عن اختلاف العقول واختلاف النتائج . أخذ أنصاره يبحثون عن مقياس عقلي يوسط العقل ويعصمه من الخطأ وتمحصر عن هذا المقياس . عقل أرسطو موضع مقياساً تعصم مراعاته ذهن عن الخطأ في الفكر ، هو : « المنطق »
يبدو أنه سرعان ما لوحظ أن المنطق لم يعصم ذهن الذي ابتدعه وأن هذا الذي ابتدع طريق العصمة : أخطأ وأخطأ ، وأخطأ !
ثم لوحظ أن جميع الذين فتنوا بالمنطق في العصر اليوناني : واستخدموه في كتاباتهم لم يعصمهم عن الخطأ .

وأحد الناجثون قديماً وحديثاً . يذكرون في الحس الذي أدى إلى عدم قيام المنطق بما يراد منه ، وهو العصمة . فوجدوا الخلل ولا حظوه ، وحاولوا له علاجاً فلم يثأت لهم ذلك .

لقد كان الخلل في المنطق من ناحية الشكل ، ومن ناحية الجوهر^(١)

(١) سبق أن كتبنا في تعلقنا على كتاب المقدس من الصلال : ما يلي
« قد نفوس . إن العقل وهو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب العقبيين عموماً له مقياسه ، وله موارسه التي لا ينطرق إليها الخلل . إن المنطق لقد سمع منه والحدث ، أنه يعصم مراعاتها ذهن عن الخطأ في التفكير

ولقد جاهدت الإسمائية جهاداً طويلاً حتى جعلت من الاستقراء والقياس داتين للفصل بين الهدى والصلال ، ولتفرقة بين العمية العمياء ، والصواب الأصوب

فالاستقراء والقياس إذن هما وسيلة العقل ، وهما فيصل التفرقة بين الهدى والرشاد فمن النجى على المعتزلة وعلى العقبيين . وقد اعتمدوا عليها . أن يصم مذهبهم بحجافاتهم لطريق الأقوم .
في وجهة النظر هذه تبدو ، وكأنه لأعوار عليها يبدو أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل وتهدر .
فما أولاً . لأن المعتزلة أنفسهم ، والمعتلين عامة مع عماذهم على الاستقراء والقياس - قد احتلوا فرقاً وأحزاباً لا تحصى ، وكان فرقة وشيعة تتبع رئيساً وصل به « استقراؤه » ووصل به « قياسه » إلى نتائج معية ، تختلف في سبل . أو في كثير - عن نتائج استقراء آخر ، وقياس مختلف =

وأما ثانياً فلاز المفكره «المنطق يعصم الذهن عن الخطأ في التفكير ، أو المنطق وسيلة التفكير لصحيح ، فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقة وذلك يحتاج إلى تبيان
 إن القياس هي كما ذكرنا : الاستقراء » والقياس
 اما الاستقراء - وهو أساس المصهورات العامة والقضايا الكلية - فإنه

١ - مبني كله على الحسن . به استمرار عادت ، به تتبع حوثيات ، لا يخرج عن نطاق الواقع أما
 لماير فهو يرى ، منها كل البرهه ، لأنها لا تدخل في دائرة اختصاصه فهو عاجز عن أن يحرق الحجب
 بيصل إلى ما وراء الطبيعة

٢ - ثم إن الاستقراء تام ، وناقص والثام كما يعترف اساطقة لاغده فيه ، ولافانده
 أما الناقص وهو المهمل في نظرهم فإنه في رأيهم أيضاً غنى ، وهو لذلك عرضة للتغيير ،
 في كل آونة

« كل معدن يتمدد بالحرارة » تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعادن
 لم تكتشف بعد - تأكيدها ، ومن الحائر أن تكتشف في المعدن معدن لا تمدد بالحرارة إنها - إذن قضية
 مؤقتة ، ظنية ، تتبرأ من اليقين القسوي .

« والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله وإنما حقائقه كلها إضافية مؤقتة » ، « قيمتها ،
 حتى يتكشف البحث عما يربط هذه القضية أو يعبرها »^(١)
 وهكذا قضايا الاستقراء ، إنها .

١ - خاصة بالطبيعة ، ولأشأنها بما وراءها .

٢ - ظنية ، لا تعرف اليقين

أما القياس

١ - فإنه مبني على الاستقراء ، إذ هو مطبق دائماً على كلية ، كلية استقرائية ، ومادامت قضايا
 لاستقراء ضيقة كما رأينا ومبدأها محاسب ، فتنتج القياس ظنية كذلك ، ومبدأها المحاسب
 ٢ إن المساطقة لا يشترطون في مقدمات القياس - أن يكون مسمة صادقة في نفسها ، وإنما يشترطون
 أن يسبقها المتجادلون محاسب ، وقد يكون محاسب أيضاً للصيرورة مسكرة كادبه في
 نفسها ، وفي هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ويتيحته باطلة

و إذا كان الأمر كذلك فما كانه القياس ؟ ما قيمته اذا كان لا يعول فيه الا على ان تكون =

(١) انظر مقدمة هجر الإسلام

وأصبحت كل قيمته . أنه مران عقلي على أشكال عدة وضرروب منتجة أو غير منتجة ، ولا نتيجة له ، انهم إلا إذا كانت السياحة الذهنية في الأشكال والضرروب .

وقد وضع ذلك . ما لا يحتاج إلى مزيد - علماء النهضة الحديثة . أمثال

= المقدمات متوالية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة وإن لم تطابق النتيجة فواقع ؟ ما قيمته إذا كان لا يحصل بصدق النتيجة أو كدها !

إنك إذ قلت الكثير من العلم ، يؤدي إلى الاستقلال الفردي ، وكل ما يؤدي إلى الاستقلال الفردي مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً في نظر المنطقة . وإذا قلت الكثير من العلم يؤدي إلى التماسك الاجتماعي ، وكل ما يؤدي إلى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد للمجتمع ، كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المنطقة ، ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان

٣ - ومع كل هذا فالقياس استدلال دوري فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة في محو قولنا محمد و محمد إنسان ، وكل إنسان فاطم . فمحمد فاطم ، متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقة على جميع أفراد النوع الانساني ، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقة محمد . ولو كنت في شك من ذلك ، لما استطعت تعميم الحكم على جميع أفراد الإنسان . وإذا تكون الكبرى متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس استدلالاً دورياً فاسداً ، فلا حول عليه

٤ - وأخيراً ، فللقروض : أن نتيجة القياس جديدة كل الحدة ، إنها استنتاج مجهول هو النتيجة - من معلوم ، هو المقدمات

ولكن النتيجة متضمنة في المقدمات ، إنها ليست مجهولة ، والقياس إذ لا يؤدي إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم إنه إذا أردت الدقة استنتاج معلوم من معلوم تلك هي موارد العقل - وهي موارد لا عناء فيها ولا جدوى منها ، العقل إذن قاصر عما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر عن الخصوص مما يتعلق بالإلهيات ومن هنا كانت الحكمة في نزول الأدباء ومن هنا كان السبب في اقتصرها على الأخلاق والإلهيات وإذا كانت قد تحدثت في التشريع فإن التشريع داخل في نطاق الأخلاق

« بيكون » و « حزن استيورت ميل » ، وأصبح المطلق انشوري الآن لا يساوي شروى نقيري في مقاييس الحقيقة أوفى عصمة الإنسان ، وضاع الأمل العذب الذى تعلقت به الإنسانية زمناً طويلاً متحيلة أن الإنسان سيصل بالمطلق إلى العصمة المطلقة

وكما تعلقت أعين الإنسانية بمطلق أرسطو رماً فقد تعلقت أعينها بمهج (ديكارت) رماً آخر . ولقد ظن ديكارت بمنحه وأشاد بأنه تلقه دت ليلة ، فغمره فرح لا يوصف ، واعتقد أن مشكلة المعرفة الإنسانية قد حلت ، سوء أكان ذلك في الدين أم في الطبيعة .

واستخدم ديكارت منحه ، وتحدى به ، ولكن سرعان ما تبين خطؤه في الطبيعة ، وخطؤه في كثير من النتائج التى وصل إليها

وضاع مرة أخرى أمل الإنسانية الذى مدّت إليه أعينها فترة من الزمن وتتساءل الآن : أحقاً لم نصل الإنسانية إلى مقياس عقلى صحيح لفصل الفاصل بين الصواب والخطأ في عالم ما وراء الطبيعة ، وفي عالم الأخلاق ؟ وسخوب عن هذا السؤال : حاسم جارم : وهو أن الإنسانية : لم تصل إلى مقياس عقلى تفرق به بين الهدى والضلال في عالم ما وراء الطبيعة ، وأن هذا العالم : لا يزال بالنسبة للعقل من المسابير المحصورة التى لم يرفع الحجب عنها إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن طريق الوحي الإلهى ومما لاشك فيه : أن جميع مذاهب الفلسفة فيما يتعلق بعالم الغيب - ظنية إن لم تكن وهمية .

أما عالم الأخلاق ، أما دينا السلوك ، إنه كما أحقق المطلق في مجالاتها فقد أحقت جميع المقاييس البشرية ومن بينها مقياس لضمير .

خرافة الضمير

(١)

إذا بحثنا في معاجم اللغة العربية ، عن معنى كلمة « ضمير » فإننا لا نجد من بين معانيها ، المعنى لأخلاقى ، الذى نفهمه من هذه الكلمة فى العصر الحاضر . ونستعملها فيه ونطلقها عليه ، وهى لم ترد بهذا المعنى فى القرآن ، أو الحديث ، أو فى الشعر العربى القديم ، إنه معنى محدث ، أخذناه عن العرب فى العصور الحديثة .

وقد استعمله الغرب كثيراً ، وأشد به ، حينما أورد أن يصع للأخلاق أساساً ومقياساً ، منصفين عن الدين .

وكان دلت على الخصوص ، حينما أراد العرب ، أن يتخلص من سيطرة الكنيسة ، وأن يخرج على سلطتها ، ويثور على قواعدها وأوصاعها ، ويفرق أوفصل بين الدين ولدونة . وكان الدين . إذ ذاك أساساً ومقياساً للأخلاق . ولا مناص ، إذا أريد التخلص من الدين من لبحث عن أساس ومقياس للأخلاق فلا بد لاستقرار المجتمع ، وهدوئه وأمنه من أن تستقر الأخلاق وتقوم على دعامة قوية ، وإلا ، لانهار المجتمع ، وباله الفساد من جميع أقطاره .

وتلعت رعماء انثورة على الكنيسة يميناً وشمالاً لعلهم يجدون ما يقوم مقام الدين وقد تحللوا منه بالنسبة للأخلاق ، فوجدوا - كسراب يتألق -

الصغير ، فتشثوا به ، وأثثوا عليه ، ورهروا من شأنه ، واعتبروه أساساً ومقياساً للأخلاق .

وما من شك كما يقول العالم الفرنسي كبير الأستاذ « أندريه كرسون » « أن الأكثرية من الناس ، بل ربما جميعهم ، يكون لهم صميم مني أدركوا من الرشد فحينما يشرعون في عمل ، فإنهم يشعرون بأن هذا العمل ، إما أن يكون واجب التمسيد ، وإما أن يكون واجب الترك ، وإما أن يكون من قبيل المسامح وحينما يقرمون بالعمل - سواء أراعوا لصغير أم لم يراعوه - فإنهم يشعرون ، أثر القيام به بمشاعر مختلفة . فإذا كانوا قد خصعوا لحكم الصغير ، فيما أوجبه ، فإنهم يشعرون بتقدير لأنفسهم تصحبه بذرة طاهرة : الرضا الأخلاقي أما إذا كانوا لم يستجيبوا لصوت الصغير ، فإنهم يشعرون باحتقار لأنفسهم شديد الإيلام : « تبكيت الصغير » : (١) .

ورأى القائلون ، على الثورة ضد الكنيسة إذن أن يستعصوا عن الدين بوحى الصغير ، وأن يتحدوا من وحي الصغير ، الأساس الذى لا يخطئ ، والمقياس الذى لا ريب فيه بالنسبة للأخلاق .

(ب)

وحيثما هدأت الأمور في الغرب ، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعي ، بعد الصراع العنيف ، بين الكنيسة والثوار ، الذى دام فترة طويلة من الزمن ، أخذ العلماء ، يراجعون أنفسهم ، ويدرسون ، في هدوء ودعة المبادئ التى قامت عليها الثورة المنتصرة ، والأهداف التى حددت ، واعايات التى رسمت ،

(٢) انظر لشكلة الأخلاقية والملازمة .

والقواعد التي حططت ، ثم هذبوا في كل ذلك وغيروا وبدلوا . وكان مما راحموا أنفسهم فيه : مسألة « الضمير »

ويقول « أندريه كرسون » :

ولما استعرضوا التاريخ والوقائع والملاحظات ، يستيرون بها في أمر الضمير رأوا : « أن الناس في كل العصور ، وفي جميع الأقطار ، يستشيرون ضمائرهم . ولكنها لا تسمعهم جميعاً ، حناً واحداً إذ أن ما يظهر عدلاً وخيراً ، لعصر النفوس المحلصة في عصر خاص ، لا يظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى ، هي أيضاً محلصة ، ولكنها عاشت في عصر آخر ، أو مكان آخر » (٣)

أما إذا أردنا أمثلة على ذلك فإننا سجدنا كثيرة ، عندما نوازن بين أحوال الضمير خلال مختلف العصور .

ويضرب لنا الأستاذ - أندريه كرسون - لأمثلة الكثيرة :

« ففي العصور القديمة اليونانية ، اللاتينية كان نظام الرق مشروعاً إن أشرف القلوب ، إذ ذاك كانت نحد من العبيد ، أن يباع الرجال والنساء والأطفال ، وأن يعاموا معاملة السوائم .

ويقول :

وكانت القوانين الرومانية القديمة ، تحمل من المرأة والأطفال ملكاً لنزوح ، كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً . لهذا كان للأب ، من بين الحقوق الأخرى ، الحق في أن يعرض ابنه المولودة حديثاً ، في السوق العام ، إذا كانت له بنت أخرى . ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بعيداً .

فهاهم أولاء أسلاها ، كانوا يرون شرعية تطبيق العقوبة على مجرد ظن

(٣) المصدر السابق

اخرى وكأوا بلا أدنى قلق يشاهدون الفرد مشوقاً من أجل احتلاس
تأفه (٤)

ولكننا عندما نوارن بين أحوال الصمير ، في العصر الواحد في قطار
محتمة ، فإننا نجد أيضاً فروقاً لا تكاد نحصى ولا تعد .

فالشعوب التي يسود فيها ، نظام تعدد الزوجات ، لا تعب من يتزوج بعدد
ممن يريد فقط ، بل إنها ، فوق ذلك ، لتعد هذا العمل منه ، سامياً ومشرقاً
إلى حد كبير ، وإن مشاعر الحياة القوية جداً عند الشعوب المنحصرة لا تهر قليلاً
ولا كثيراً : مثل زنوح الكنعو ، وسكان جزائر « تايي » (٥)
ويقول :

ومن ناحية أخرى ، فإنه لا شيء أعرب من مشاهدة بعض الالتزامات التي
تقتضيها حياة بعض البدائيين . وبس من شجوه ، ما يعد من المحرمات الدينية
عندهم : مثل تحريم بعض أنواع اللحوم ، أو بعض أنواع الأشربة ، أو خروج
النساء بدون حجاب .

وأم الطقوس السائدة في البلاد « الأوقيانوسية » معروف مشهور .
فهو يعتبر من الآثار ، ما قد يظهر لنا طبيعياً ، بل فوق ذلك ، ما يظهر
صريحاً : إنها تحرم تناول الطعام تحت السقف ، والملكث في المسكن إذا كان
المرء مريضاً ، واستعمال الأيدي في التعذية ، بعد فراع المرء من خلق شعره ،
أو بعد فراعه من صنع زورق .

على أن الدلالة العميقة ، إنما هي مظاهر اختلاف الصمير في البيئة

(٤) المصدر السابق

(٥) المصدر السابق

الواحدة ، وفي الجماعة الواحدة ، المتحصرة المتمدية
وهل الرأسمالي ، الذي يدافع عن نظام الميراث ، أقل إخلاصاً من الشيوعي
الذي يهاجمه ؟ وهل الديمقراطي ، لدى يقرر ضرورة الانتخاب لعام ،
أقل إخلاصاً من الأرستوقراطي الذي يعبر ، عدم ملاءمة هذا النظام ؟
وهل (فيلانت) ، عندما يبيع أنواعاً من الكذب ، أقل اقتناعاً برأيه من
(ألسست) عندما يجرمها ؟

إن « شارلوت كودي » عندما قضت على حياة (مارا) كانت ترى ،
ولاشك ، أنها إنما تقوم ، بعمل أخلاقي عظيم بلا مراء . فهل المواطنون ، الذين
ساقوها إلى المفصلة ، كانوا أقل إيماناً بها بقيمة لأخلاقية لعملهم هـ ؟
هذه الأمثلة ، التي ذكرها الأستاذ « أندريه كرسون » إنما هي قطرة من
بحر ، مما يمكن أن يبرهن به ، على اختلاف الصمير ، بحسب اختلاف الزمن ،
أو اختلاف الثقافات في البيئة الواحدة .

وهناك أمثلة لا تحصى إذا ما قارنا ضمائر العرب في العصر الجاهلي ،
بضمائرهم في العصر الإسلامي ، أو ضمائر الوثنيين في مكة بضمائر مسلمين فيها
بعد نشأته للإسلام ، وإذا ما قارنا ضمائر المتفريجين في مصر العصر الحاضر ،
بضمائر المحافظين فيها ! !

والشبهة لكل هذه المقاربات ، هي : أن اتخاذ الصمير كأساس للأخلاق
أو كمقياس لها ، إنما هو مجرد حماقة وعيب .

ومن الشبه ، التي جعلت الناس يؤمنون ، بحكمة كبرى للصمير ،
ويرفعونه : أنه قد شاع بين بعض الطوائف ، أن الصمير قوة فطرية معصومة
بطبيعتها ، ولكن هذه الدراسة السابقة تؤدي بنا لاحتاجة إلى أن الصمير قوة

عظمية حقاً ولكم قوة غير معصومة لأنها تربي وتكتسب مما يتعلق باللون الذي تتخذه .
وهي وإن كانت قوة عظمية إلا أنها تتلون بحسب ما تتعدى به من ثقاه ،
ومن وراثه ، وهي تختلف في الفرد الواحد بحسب اختلاف سه ، وبحسب تنقله
من بيئة إلى بيئة وبحسب الكتب التي تلمده بالثقافة العقلية . أو التهذيب
الروحي ، وبحسب اختلاف الأصدقاء الذين يلزمهم الإنسان في حياته الواحد
تلو الآخر .

والضمير إذن متأرجح متقلب ، لا يستقر له قرار ، لأنه حتى لو مكث على
حالة واحدة تجاه مسألة معينة فإنه في هذه الحالة السائرة يتأرجح أيضاً ، قوة
وضعهما ، واتزاناً وإسرافاً .

والوضع الصحيح إذن بالنسبة لأساس الأخلاق أن نلجأ إلى الدين ،
نستمد منه الهداية والإرشاد ، فإنه هو وحده : المعصوم

والدين الإسلامي قد أتى في الحدب الأخلاق بكل ما تتطلبه النفوس
المرهقة ، والأفئدة المتعطشة للاستقامة لقد أمر بذلك كبار الفلاسفة
الإسلاميون « كبن سينا وغيره » .

لقد رأى ابن سينا ، أن الدين الإسلامي ، أتى بأكمل نظام
أخلاق تشريعي بالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للأسرة ، وبالنسبة للفرد ، ونحدث
ابن سينا عن ذلك غير مرة في مختلف كتبه

أما صلة الدين بالضمير ، فإنها صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة إنها
صلة هممة تستمر مدى الحياة ، وإذ ما انت هذه الهممة في أي فترة من
فترات الحياة ، فإن الضمير يحتل انتره وتواريه ، ويتأرجح ويتذبذب ، لأنه
يحتاج باستمرار إلى القائد المربي ، وليس هذا القائد المربي إلا الدين

الفصل الخامس

الإمام الغزالي والفلسفة

« رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق . والقرب منه » اعلم . » - عن كثرة فرقهم ، واختلاف مذاهبهم - ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

الدهريون .

والطبيعون .

والإلهيون

« الصف الأول الدهريون ، وهم طائفة من الأقدمين ، جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ، ورغموا . أن العام لم يزل موحوداً كذلك نفسه ، وبلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً ، وهؤلاء هم الزنادقة .

« والصف الثاني : الطبيعيون وهم قوم أكثرنا نحتم . عن عدم الطبيعة وعن صفات الحيوان ونبات »

« وأكثرنا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات »

« فأولها من عجائب صنع الله تعالى ، ودائع حكته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بماطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريع وعجائب منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني بسية الحيوان ، لا سيما بسية الإنسان

« لا أن هؤلاء كثرة محثهم عن الطبيعة - ظهر عندهم الاعتدال المراح تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به ، فطنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تطل سطلان مزجه فينعدم ، ثم إذا انعدم - فلا يعقل إعادة المعدوم ، كما رعموا ، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود . فححدوا الآخرة ، وأبكروا الحنة والنار ، والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبق عندهم للطعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، فأنحل عنهم اللجام ، وأنهمكوا في الشهوات الهالك الأعوام

« وهؤلاء أيضاً ربادقة ، لأن أصل الإيمان هو . الإيمان بالله ، واليوم الآخر . وهؤلاء ححدوا اليوم الآخر . وإن آمنوا بالله وصفاته

« والصنف الثالث . الإهيون . وهم المتأخرون منهم مثل « سقراط » وهو أستاذ « أفلاطون » و « أفلاطون » أستاذ « أرسطاطاليس »

و « أرسطاطاليس » هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذب هم العلوم . وحرر لهم عالم يكن محرراً من قبل . وأنصح لهم ما كان دجا من علومهم وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما أعنو به غيرهم ، وكفى الله المؤمنين القتال فتقاتلهم

« ثم رد « أرسطاطاليس » على « أفلاطون » و « سقراط » ومن كان قبله من الإلهيين ، ردّاً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ، إلا أنه استثنى أيضاً من

ردائل كفرهم ويدعتهم : بقايا م يوفق للنزوع عنها ، فوح تكفيرهم ، وتكفير
 شيعةهم من المتفلسفة للإسلاميين « كاس سببا » و « الفارابي » وأمثالها
 « على أنه لم يفهم بنقل علم : « أرسطاطاليس » . أخذ من متفلسفة الإسلاميين
 كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يجوز عن تحييط وتحليط ، بتشوش
 فيه قلب المطلع ، حتى لا يفهم ، وما لا يفهم . كيف يرد أو يقبل ؟ ومجموع
 ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس . نحسب نقل هذين الرجلين ، بهحصر
 في ثلاثة أقسام .

١ - قسم يحب التكفير به

٢ - وقسم يحب التديع به

٣ - وقسم لا يحب إنكاره أصلاً ، فلهضله

« ولكن مجموع ما علطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يحب تكفيرهم في
 ثلاثة منها ، وسليعهم في سبعة عشر .

ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنعنا كتاب « لنهايت »

أما المسائل الثلاث ، فقد حانقوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم .

١ - إن الأحساد لا تحترق . وإنما اثبات ، والمعاقب هي الأرواح المردة .

والشربيات والعصوبات روحانية لاحصائية

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار

الحصائية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به

٢ - ومن ذلك قولهم . إن الله تعالى يعم الكليات دون الجزئيات

وهذا أيضاً كفر صريح . بل الحق أنه . لا يعرب عن علمه مثقال ذرة في

السموات ، ولا في الأرض »

٣ - ومن ذلك قولهم يقدم العالم وأرليته هم يذهب أحد من مسلمين إلى

شيء من هذه المسائل

« وأما ما وراء ذلك ، من صميم الصفات ، وقولهم : إنه عديم بالذات

لا يعلم رائد على الذب ، وما يحرق بحراه ، فمذهبهم فيها - قريب من مذهب

المعتزلة »

» «

وقد يتساءل إسان إذا كان الأمر كذلك فلم انتشرت العلوم الفلسفية في

العالم الإسلامي ؟

يقول في ذلك الحافظ عماد الدين ابن كثير في تاريخه ، سنة ٦٨٧ هـ بعد أخذ

التار بعداد عمل الخواجه نصير الطوسي الرصد ، وعمل دار حكمة فيها فلاسفة

لكل واحد في اليوم ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها فلاسفة لكل واحد في اليوم

ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها للحكيم درهمان وصرف لأهل دار الحديث لكل

محدث نصف درهم في اليوم ومن ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر »

» «

والفلسفة التي بعينها هنا ، إنما هي المحاولات المستمرة التي بدأت منذ

العهد اليوناني القديم ولا تزال - بناء « ما وراء الطبيعة » على لعقل ، إنما هي

المحاولات لعقلية ، لا اختراع ما وراء الطبيعة واستداعه ، بحيث يأخذ العقل

حريته في لإثبات والنسب ، غير متأثر إلا بمقاسه هو التي يفرضها ، وإذا كان

العقل قد اشتغل بالفلسفة والرياضيات ، وإذا كانت الطبيعيات والرياضيات قد

أدخبت في الفلسفة كأجزاء لها فإن الهدف الأول للإمام العراقي ، إنما هو حجب

ما وراء الطبيعة .

ومما لاشك فيه ، أن العقل قد أنتج ثماراً يابغة في الطبيعيات والرياضيات ،
لقد أقام القواعد المحكمة ونظم المبادئ المتقنة وانتهى به الأمر إلى أن شيد
الطبيعيات والرياضيات على أسس متينة . وكان الأمر كذلك في هذين الميدانين
لأن العقل يعمل في دائرة اختصاصه ، ودائرة اختصاصه ، إنما هي المدييات
والمحسوسات ، أو ما يتمثل فيها حيما يوجد خارج الدهس كالرياضيات
وعر هذا السحاح قوماً ، فاعتقدوا أن في استطاعة العقل أن يحول في كل
ميدان : في استطاعته أن يحول في الطبيعة وفي ما وراء الطبيعة ، في العالم وفي
ما وراء العالم في المادة وفي المخردات ، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب وكانت
النتيجة أن قحموا العقل في عالم ما وراء الطبيعة . فكانت الفللفة الإلهية
العقلية . وكان الإخفاق التام للعقل في هذا الميدان

وهذه المسفة العقلية التي نتجت في العيب ، إنما هي الانحراف عن الطريق
الستقيم وهذا الانحراف حدث لعهد سيباً ، فهو يتندى كما قدما بالعهد
اليوناني ، وأشهر من تولى كبره في ذلك العهد ، إنما هو « أرسطو »

وأرسطو هذا الذي يعتز به بعض المؤرخين أكثر عقلة فلسفة ظهرت على
وجه التاريخ ، هو أيضاً أشهر للذين اشتهر مذهبهم في عالم ما وراء الطبيعة وكان
إحفاق عقله الكبير ما في يختص بمعرفة الغيب من أوصح الأدلة على أن عالم
الغيب أنمي من أن يتناوله العقل البشري الخطاء ولقد كانت الاعتراضات على
مذهبه قوة عامة شامة حتى إن تلامذه وهم فلاسفة دب الأس في نفوسهم
من إقامة عالم ما وراء الطبيعة على أساس العقل فلم يمكنهم أن يردوا على
الاعتراضات ورأوا أنه إذا كان أستاذهم قد أحقق هذا الإحفاق في مذهبه عن
عالم الغيب فإنهم سيحققون من باب أولى لو حاولوا إقامة مذهب في الإلهيات

حديد يقول الأستاذ « سأتلانا » بعد أن ذكر الاعتراضات على مذهب
أرسطو

إن ذلك « حمل اللامدة بعد موته على الإيلاس من الإلهيات والتصرغ إلى
علم الطبيعة ، وعلم لأخلاق . احتصروا بهما في القرن الثالث قبل الميلاد ، حتى
لقوا بالطبيين سيباسيعة « ثارقسطيس » و « استوائون » اللذين حلما أرسطو في
رياسة « در العيم » التي كانت للمشائين بأثينا » اهـ :

انصرف إذاً تلاميذ أرسطو - يائسين - عن علم ما وراء الطبيعة إلى عالم
الطبيعة والأخلاق وإذا كان مذهب رعيم العقلين قد اهار ، فمن باب أولى يهار
مذهب غيره ممن هم أقل منه ، ولكن هذا الأهار المتتابع للمذاهب العقلية في
الإلهيات ، لم يصرف الناس عن هذا النمط من المحاولات ، انتهى مآلها دائماً
الإخفاق .

وتتابع هذه المحاولات في الشرق والغرب إلى عهد الإمام الغزالي
ورأى الإمام الغزالي مصيرته العادة ، وحدثه الملهم . أن هذا الطريق ،
الذي انحرفت إليه الفلسفة وسارت فيه ، إنما هو طريق مسدود ، ولا بد إذاً من
مخارطة هذا العث الذي يسمونه « الفلسفة العقلية » لابد من محاربتها لأسباب
عدة . فهو إضاعة لوقت ، وهو تشكيك للبشرية ، ورعزعة للإيمان وليس له
من نتيجة إلا التفرق والاختلاف . وتوهين المقدسات

على أنه إذا كان يلتزم ليونان العذر في معالجة هذا الموضوع ، لعدم وجود
الوحي المعصوم ، الذي يهديهم الطريق ، ويسير لهم الحدة ، فليس هناك من
عذر للمسلمين وبين يديهم رسالة السماء ممثلة في « القرآن »
وهو ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقد تكفل الله بحفظه . ﴿ إنا نحن نرسل الذكر وإيا به لحافظون ﴾ ليس للمسلم إذاً فيما يرى لإمام العزلى أن يحاول انتداع عالم ما وراء الطبيعة ، أو اختراعه عقلياً ، ولكن المسمين أخذوا فيما أخذ فيه اليونان واعتمدوا على العقل وألقوا بقيادهم إليه ففترقوا مذاهب شتى ، وطرائق قدد ، وأصبح للفلسفة برعم هذا بريق يحطف الأنصار . ولعلنا كالسراب يحدب الكثيرين .

لأبد إذاً من استشعر عن ساعد الحد ، وهدم هذا لريف ، وإبطال هذا السحر حتى يعود الناس إلى الاعتصام بحس الله وعدم التفرق وحسن الإمام العزلى على الأساس ، الذى تقوم عليه الفلسفة وهو « النفس » حمنة عيمة ومحكم عليه محوماً قوياً ، ولم يمتزقط عن مهاجمته منذ أن ألف كتابه القيم « نهايت الفلاسفة » إلى أن انتهت به الحياة ، وبعد كان كتابه « نهايت الفلاسفة » محاولة موفقة كل التوفيق ، حريثة كل الجرة ، طريقة كل الطرافة ، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى لمحمومه . هدم الآراء فى نفسها ، فمعصها صحيح ، موافق بلدين ، ومع ذلك فقد هدم الإمام العزلى ، منهج العقلى ، الذى استندت إليه هذه الآراء ، « فحدود النفس » مثلاً رأى بقول به العزلى ، ويقول به الفلاسفة ولكن لإمام العزلى ، حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى إثبات حدود النفس وهدم أدلتهم ، وصرب معوله فيها فاهرت ونهاقت ومع ذلك ، فقد كان هو مؤمناً بهذا الخلود ، إنه لم يلتزم فى هذا الكتاب إلا بكدير مدهمهم ، والتعير فى وجه أدلتهم بما بين نهايتهم ومقصوده . تسيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة . وطن أن مسالكهم نهاية

عن التناقض ، ببيان وحوه تهاقنهم
ويقول . أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم ، إلا دخول مطالب مسكر ،
لا دخول مدع . مثت ، فأبطل عليهم ما اعتقلوه ، مقصوعاً بالرامات مختلفة .
فألزمهم : قارة مذهب المعتزلة .

وأخرى : مذهب الكرامية

وطورا : مذهب الوقفية .

ولا أنهض ذناً عن مذهب مخصوص

ويقول الأستاذ « نلاسيوس » حق . « إن العراني حينما سمي كتابه (تهاقن
الفلاسفة) . كان يريد أن يمثل لنا ، أن العقل الإنساني ، يبحث عن الحقيقة
ويريد الوصول إليها كما تبحث العوض عن ضوء النهار ، فإذا نصر شعاعاً شبه
نور الحقيقة الممدع به ، فرمى نفسه عليه وتهاقن فيه ولكنه يحطى بمدوعاً بأفيسة
مطفية حاطة ، فهلك كما يهلك العوض

فكان العراني ، يريد أن يقول . « إن الفلاسفة ، جلدعوا بأشياء أسرعوا
إليها بلا إعمال روية فتهاقنوا وهلكوا اهلاك الأندى » هـ

وفي كتاب التهاقن هدم لإمام العراني عقلاً ما ساء الفلاسفة معتمدين على
عقولهم وتهاقن الآراء تحت علمه ، ومن الحق أن يقول . إن أدلة الإمام
العراني فيها من نفوه ، ومن الرسوخ بحيث لا تغل ، من وجهة النظر العقلية .
عن أدلة الفلاسفة العقليين

وما من شك في أن حملة الإمام العراني ، بما كانت موجهة أولاً وبانذات
إلى العمل والفصية المتعارف عليها هي فصية استطاعه العقل الوصول إلى المعرفة
اليقينية في عالم « ما وراء الطبيعة » الإمام العراني ينكر ، ويشت إنكاره

بالإحماق المتتابع للفلاسفة ويشته أيضاً هدم العقل بكل ما بناه لعقل نفسه في هذا الميدان

وانتعارض إذاً بين الإمام الغزالي والفلاسفة بما هو متعارض كلى : ولذلك فإن المحاولات الكثيرة المتعددة ، لتصحيح آراء الفلاسفة ، أو لتصحيح بعضها ، وقد الإمام الغزالي في حملته على هذا الرأي أوداك ، والانتصار لوحجة النظر الفلسفية في هذه أو تلك . إن ذلك كله غير مجد في القضية التي أثارها الإمام الغزالي ، وهي محاولات جهل القائلون بها موضوع النزاع على حقيقته أو تحاهلوه .

ومن هنا كانت محاولة « ابن رشد » وهو أكبر المدافعين عن الفلاسفة - تصوير آراء الفلاسفة في كتابه « تهافت التهافت » عملاً غير مفيد في حسم النزاع إذ إن دائرة انزعاع الحقيقة بما هي الأساس الذي بنيت عليه الآراء وليست الآراء نفسها والواقع أن فكرة لإمام الغزالي لا تزال للآن تسم بالسهولة والوضوح والقوة . فقد أحققتم أيها العقبيون والدليل على إخفاقكم اختلافكم المستمر ، هذا الاختلاف الذي أصبح وكأنه القاعدة والمبدأ العام . وإذ أردنا في الهبة تقدير مدى الآثار التي كانت ولا تزال ثمرة لفكرة الإمام الغزالي هذه فإن خير ما نعمل فيما يتعلق بذلك ، وخير ما نختم به هذه الكلمة هو أن نقل رأي الدكتور « محمد إقبال » وهو رأي يتسم بالرصانة والعمق ، بقول « محمد إقبال » في كتابه « تحديد التفكير الديني في الإسلام » :

« عن أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التي هبها الغزالي تكاد تكون دعوة للتشهير بمدّ حديد ، مثلها في ذلك مثل الدعوة التي قام بها « كانت » في

ألمانيا في القرن الثالث عشر.

هو ألمانيا طهر المذهب العقلى لأول عهده حليفا للدين ، ولكن سرعان ما تبين أن حارب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حياً فكان الطريق الوحيد إذن . أن تمسح العقيدة الدينية من سجل المقدسات وقد جاء مع محور لعقيدة مذهب المصنعة في فلسفة الأخلاق ولذا مكر المذهب العقلى من سيادة الإلهاد .

تلك كانت الحال في ألمانيا ، عندما طهر « كانت » وكشف كتابه . « العقل الخالص » عن قصور العقل للإنسانى ، فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلى من قبل وصدق عليه القول بأن كان أجل نعم الله على وطنه وإن التشكك الفلسفى الذى اصطنعه العرالى على نظره بعض الشىء قد انتهى إلى التتيحة نفسها في العالم الإسلامى إذ نصى ذلك على المذهب العقلى الذى كان موضع الزهو ، عى الرغم من صحالته . وهو المذهب الذى سار في نفس الاتجاه إليه المذهب العقلى في ألمانيا قبل ظهور « كانت » غير أن هناك فارقاً هاماً بين « العرالى » و « كانت » فب « كانت » تمسح مع مادته تمشياً لم يستطع أن نشأت أن معرفة الله ممكنة أما العرالى فعندما خاب رجاؤه في المكر التحليلى . ونى وجهه شطر الرياضة الصوفية ، وألقى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه . وبهذه الطريقة وثق لأن جعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم ، وعن الفلسفة الميتافيزيقية .

الفصل السادس

تأملات في الإيمان والإلحاد

يجلظ كثير من الناس بين التوحيد وإثبات وجود الله ، وهما أمران بان في وضوح ، اختلافهما واختلاف موقف الإسلام منهما ، إذ إن الإسلام استغاصر استقصاء كثيرة في إثبات التوحيد ، ودلت لأنه حق لا مريية فيه ، ويقين لا شك فيه ، وقد عمى عنه الوسط الذي كان بحرية العرب فأشركوا بالله أما موقف الإسلام بالنسبة لإثبات وجود الله فإنه مختلف اختلافاً كبيراً عن موقفه بالنسبة لإثبات التوحيد .

إن القرآن لم يتحدث عن إثبات وجود الله . إن الله في العرف الإسلامي وفي أعراف أصحاب المطر السليمة موحود ووحدوه لا ينأري فيه اثنان ، ومع ذلك فإن الوضع الحالي في جميع الأحواء الشرقية والعربية قد ألفت نزعاً ترى أن إثبات وجود الله مسألة تحتاج إلى برهان ، وهذا لإلف وهذه النزعة الناشئة عن التعمود في حاجة ماسة إلى بيان الوضع الصحيح في هذا الموضع الخطير ، ومن حل ذلك يرى من الواجب علينا معالجة هذا الموضع في شيء من الاستقصاء يقول الله سبحانه وتعالى عن جوهر رسالة نوح عليه السلام في العقيدة . ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إلى لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله إني أشهد عليكم عذاب يوم أليم ^(١) ﴾

(١) هود : ٢٥ ، ٢٦

ويقول سبحانه وتعالى عن جوهر رسالة صالح في العقيدة :
﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ .
وعن جوهر رسالة شعيب في العقيدة :

﴿ وَإِنِّي مَدِينُ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾
وهكذا في رسالة جميع الأنبياء إذ يقول الله تعالى في تعميم مطلق :
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

إلام تشير هذه الآيات ؟
إنها لا تتحدث عن إثبات وجود الله ، وإنما تتحدث عن الشرك ، أي
الاعتقاد في آلهة كثيرة .

ولقد كانت الثورة ضد الشرك وتحطيم الأصنام من المهام الكبرى في الرسالة
الإسلامية حتى إن العالم الكبير أبا الريحان البيروني حينما أخذ يبين الطابع الأصيل
لكل دين قال عن الإسلام :

« إن الطابع الأصيل للإسلام إنما هو التوحيد »

وإذا كان البيروني حينما تحدث عن طابع كل دين إنما كان يتحدث عن
طابع الأديان في وضعها الراهن ، فإنه مما لا شك فيه أن الأديان على الرغم
مما ذكره البيروني عن سماتها المختلفة تشترك جميعها في مبدأ التوحيد
وكل نبي بشر بالتوحيد ، ولكن الإنسانية كانت تنحرف بالعقيدة بعد موت
الرسول من التوحيد إلى الشرك ، ولشرك إسراف حاطي في الإيمان
وما كانت الإنسانية تنحرف قط من التوحيد إلى الإلحاد ، وما كان للإلحاد
وجود قط فيما قبل الحصار اليونانية القديمة

ونشأ الإلحاد محراباً فطرياً وديبياً - مع حصارة اليونانية القديمة ، نشأ
بحاور الشرك وبحاور التوحيد .

لقد كانت هذه الحصارة تشتعل في العقيدة : على ثلاثة تيارات
١ الشرك : وهو دين الدولة الشائع ، ونفاليدها الراسخة ، يمثل في فيها
الذى يمثل الشرك في قوة ، والذي أثار الإعجاب للإتقان الذى كان يمثل
فيه ، والذي مارال بشير الإعجاب للآل ويمثل في أدبها لذى يعكس صورة
لعقيدتها ، وتاريخ اليونان المكرب والأدبى ملئ بصور الشرك ، معمم بالوثنية ،
ولكن الشرك فى اليونان كعبهه من ألوان الشرك - أعطى للآلهه صورته غير
كريمة . بل لقد وصل بها أحياناً إلى صورة تحط عن صورة البشرية الآئمة
أرأيت الآلهه ترنشى وتظلم وترنى ؟

لقد كانت هذه بعض صور الآلهه فى اليونان القديمة
وهى صور أساعها الإلف والتكرار والعادة ، وشب عليها الأطفال والنشان
فلم تثر انتباههم أو توقظهم

وفى فترة من فترات هذه الحصارة فترة القرن الخامس والرابع والثالث
قبل الميلاد على الخصوص - شأت مجموعة من العاقرة لا تكاد تحصى ، وكان
اسماء فى هذه الفترة كانت تمطر عافره على معاوب فيما بينهم فى الانحاء وفى
المكانة

هؤلاء العاقرة أكثرهم استقر على رفض الشرك : أى رفض الدين الرسمى
الشائع للدولة ، ولو قدر الله لليونان إيد داك ديناً صادقاً لاستمسكوا به ،
وما نردت الإنسانية فى الأخطاء الكثيرة التى شأت عن الحصارة اليونانية فى
عالمها الفكرى الذى انفصل عن الروحى لا عن اختيار ورعة . وإنما على أسف

شديد لفقدان الوحي والرسالة الصادقة

يدنا عن هذا الأسف ، وعلى التقدير الذى كان عندهم للوحي قصة برويا التاريخ حدثت في عهد سقراط ، وهى قصة عميقة في مغزاها كل الحق
جلس سقراط - أبو الفلسفة وأبو الفلاسفة - ومعه اثنان من كبار فلاسفة
المدرسة الفيثاغورية المشهورة التى أسسها فيثاغورس الفيلسوف الصوفى الكبير
جلس ثلاثتهم يبحثون في حد واهتمام موضوع مصير الروح بعد الموت . هل
الموت هو الخطوة الأخيرة للإنسان ينتهى بعده روحاً وجسداً ، أو أنه انتقال من
حال إلى حال والروح باقية ؟

هل الإنسان تحدد بجوهره وهو الروح ، أو أنه هائل حساً وروحاً ؟
وأحدهم البحث ، وانتهى بهم إلى عدة براهين تثبت حدود الروح ، وأنها
لا تفنى ببناء الجسم
وسكنوا يستريحون قليلاً ، ولكنهم في فترة راحتهم أخذوا يتدبرون ما انتهوا
إليه ، ثم قال أحدهم نتيجة لتأمله ولكن المسألة مارالت في حجة إلى مريد
من اليقين .

ولقد كان ذلك هو ما انتهى إليه الآخرون في تأملهم ، وقال أحدهم معقلاً
على ذلك : « ولكن هذا نهاية شوط العقل »
وأسفوا جميعاً على أنه لم يزل وحي ، ولم يبعث لسيهم رسول يفصل في
هذا الموضوع .

ثم أخذ أحدهم يتحدث عن تشبيه دقيق يتعلق بوسيلة العبور في محيط
ما وراء الطبيعة ، والمحيط المادى إنما يتأق في أعراف الناس عن طريقين .
أحدهما . السفينة يعربها لإنسان المحيط أما مطمئناً من شاطئ إلى شاطئ

أما الثانية فإياها لوح من خشب ، مصير راحته الفرق في أغلب الظن
ووسيلة عبور محيط ما وراء الطبيعة هي الوحي ، وهو السفينة الآمنة المتينة
والعقل وهو لوح الخشب الذي لا يصل في أغلب الظن إلا إلى غرق
راحيته .

ولقد كان فلاسفة اليونان في همّة على أن يتزّوا عليهم لوحى في جدته
وبصره وصدقته ، ولم يقدر لهم ذلك ، ورفضوا الشرك . ديهيم الرسمى ، فما هو
البديل ؟ إنه لوح الخشب . .

وركيته . ركه سقراط . وركه أفلاطون ، وركه أرسطو ، وركه من
قل . لسوفسطائيون ، وركه من بعد أبيقور ، وركه الرواقيون .
إلام وصل بهم ؟ لقد وصل بهم إلى :

٢ . التوحيد . فيما رأى سقراط وأفلاطون وأرسطو وكثير غيرهم . وهذا
هو التيار الثانى الذى كان فى اليونان فى عصرها القديم بيد أن توحيد هؤلاء ليس
هو التوحيد كما نزل على لسان الصادقين المعصومين صلوات الله عليهم وسلامه ،
ولم يمثل توحيد المدرسة السقراطية فى حزبياته وى تفاصيله التوحيد الصادق ،
ولكنه على كل حال ليس شركاً .

٣ . وأدى بهم ، فى فريق آخر ، إلى الإلحاد ، الإلحاد المطلق ، الإلحاد
بعد الطبيعة وللبعث والرسالة . وكان ذلك على لسان أبيقور ومن لف لفه فى
اليونان من قبله أو فى زمنه ، أو من بعده

لقد فقدوا فى مطلقهم ليتافيرقوا لاعتماد على الوحي فقادهم ذلك إلى
مسالك شتى ، ولو كان هناك وحي لقادهم وقاد عقولهم إلى الشاطئ فى من
وسلام

ومد هذه اللحظة دخل لإلحاد في العالم مستنداً من اليونان
وأصبحت مسألة الدين في الحو الفكري لتتبع هذا التيار اليوناني مسألة
عقبة لا شأن لها بالوحي ، وأخذت تسير في محرها العقلي العادي .
المؤمنون يبرهنون عقياً على إيمانهم
والملاحدون يرفضون المطلق برهنة على إلحادهم .
لقد أخذت المسألة في هذا الطريق مع أنها شعور وفطرة وبداية
وما من شك في أنه كان لمؤلفين مطلق حميل في الإثبات ، بذكر منه شيئاً
من إثبات سقراط .

قال سقراط لصاحبه الذي يكر وجود الله .
أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع ؟
فقال . نعم ، وسمى من الشعراء والمصورين ممن كان يعده أروع من غيره
فقال سقراط :

أيها عندك أروع شأناً ؟ أمن يصنع التماثيل العارية عن الحركة والعقل أو من
يصور الأشباح الحية المتحركة ؟

فقد : من يصنع الصور الحية ، اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل
مصادفة والإتقان لا من عمل العقل .

قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى يبيده
المقصد والمضفة ، فما قولك في تلك الأشياء ؟ وما هي التي عندك من فعل
العقل ؟ وما هي التي عندك من فعل الإتقان ؟ .

قال : لاشك أن ما ظهر قصده ومفخته من فعل العقل
قال سقراط : أولست ترى أن صانع لإسنان في أول نشأته جعل له آلات

لحس لما في تلك الآلات من السمعة الظاهرة ؟ فأعطاء لبصر والأذنين ليصير
ويسمع ما يكون لعيشه صادقاً ، وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الحياشيم ؟
وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين الحلو والمر لو لم يكن لنا لسان نفوق به ؟
إن بصرتنا معرض للآفات

أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الإلهية بذلك ، فجعلت لأجفان
كالأبواب نمنع ما يصيب البصر ، وجعلت لأهداب كالمناخل لتقيها من أضرار
الرياح ؟

وما قولك في آفة السمع ، وهي تقبل جميع الأصوات ولا تمتلي أبدأ ؟
أما رأيت الحيوانات ، كيف رنت أسنانها المقدمة ، وأعدت لقطع الأشياء
فتلقبها إلى لأصراس فتدقها دقا ؟

فإذا تأملت في ترتيب ذلك ، يمكنك أن تشك هل هي من فعل الإثقان
أم من فعل العفل ؟
قال أرسطو ديموس .

نعم إذا تفكرنا في ذلك لا نشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية
بمصوغاته . .

ومها يكن في هذا الاستدلال من جمال ، ومها يكن في استدلال المؤهين
العقليين أمثال أفلاطون وأرسطو وديكارت من قوة فإن المسألة مع ذلك انحراف
مهتة له ظروف اليونان التي فقد فيها الوحي ، وهذا الانحراف لم يجد من
يصححه فأخذ صورة الوضع الطبيعي وهو محرف محرف
ما الوضع الطبيعي للمسألة ؟

قصّ عليّ صاحب لي قصة هزت شعوري هراً قوياً ، وأخذت أفكر فيها
عدة أيام .

وما كنت أتخيل أن يصل صدق الإيمان إلى هذه الدرجة
قال صديق - وهو سوداني - يحتل مكانة مرموقة في العلم والإيمان
إد في أطراف السودان (قرية صغيرة) شبه أن تكون معزلة
لا يكاد يطرّق أبوابها غريب .
ويسكن (هذه القرية) رجل صالح يسير في حياته على تقوى من الله ،
وعلى بصيرة من دينه .

عاش هذا الرجل وعلمه - كل علمه - هو (هذه القرية) التي لم يفارقها
قط

نقد تعود فيها على (أناس معينين) .
وعلى (ألوان محددة) و (ملابس) لا تكاد تختلف من فرد لآخر
إيه في تصوّره الحسى محدود بهذه القرية .
وفي يوم من الأيام اقتضت الظروف في صورة من الخمية - أن يذهب
إلى مدينة بعيدة

وكان هذا في حياته حدثاً هائلاً
فإنه لا يعرف الطرق ولا المسالك ولا كيف يسير .
ولابد من السفر .

فاصطحب معه أحد أبناء القرية ممن لهم درية بالأمر ، وسافرا .
وعلى مشارف المدينة رأى الرجل الصالح مطراً تعجب له . .
رأى (ضابطاً إنجليزياً ! !)

ورؤية صاعد بحليري في السودان إذ ذاك كانت أمراً عادياً

ولكن صاحبنا لم ير هذه الصورة من قبل

وسار تفكيره على السبق التالي .

ما هذا (الكائن) قد (خلق حيته) على هذه الصورة حتى وكأنه قد

«منفرها» إلى أن أصبحت وكأنها لم تكن .

وما له قد كتف نفسه في ملاسها على هذه الصورة ، ثم ربط نفسه أيضاً

بحرام في الوسط .

وماله . وماله .

ثم سأل مرافقه : ما هذا ؟

فقال مرافقه : هذا (خواجه)

ولم تكن هذه الكلمة قد دخلت قاموسه اللغوي

فعاد يسأل : وما خواجه ؟

فقال صاحبه : (يعني كافر) .

وكان هذا مبلغ علم مرافقه :

فإذا بالرحل يرتجف قليلاً ويضطرب

ويسأل في اهتمام وقلق (أهو كافر بالله ؟)

فقال رفيقه . (نعم كافر بالله) .

فإذا بالرحل الصالح يمتني جسمه وشعوره (بالاشمئزاز) من هذا لكافر ،

فإذا بهذا (الاشمئزاز) يرداد شيئاً فشيئاً

وفي سرعة سريعة ، وصل الاشمئزاز إلى عاينه (فتفاياً)

وكي يحدث الاشمئزاز من (القادورات المادية) فإنه يحدث من

(القادورات المعنوية مثل الكفر بالله) .

والكافر بالله فيما رأى صاحبها إنما هو مجموعة من (انقادات المعنوية) .

لا نستحق إلا الاشتزاز إلى درجة التنايؤ

أما مطلقه في هذا الاشتزاز فهو أن المكر للجميل تشمئز منه النفس
ويرداد هذا الاشتزاز ويعصم كلما كان الجميل كبيراً
وكان المكر متبجحاً

وإننا إذا نظرنا إلى ما لنا من نعمة فإننا نجدنا من الله
﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾

وإذا نظرنا إلى كمية هذه النعم نجد أنها لا تحصى .

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

فن أنكر هذه النعم وهي محبطة به

ووصل به إنكاره للجميل إلى درجة الكفر

فإنه يكون قد نكح في إنكار الجميل مستهاه

فيلع الاشتزاز منه مستهاه « التنايؤ »

وما كان صاحبها يفكر في منطق شعوره وإذا كنا نحن نتمسك المطلق لهذا

الشعور ، فإن هذه الظاهرة إنما تعبر أبلغ تعبير عن (صدق الإيمان) ، (وصفاء
الصدر) .

لقد فوجئت حقاً بهذه الدرجة من صدق الإيمان

وأحدث أربطها مما سبق أن قرأت من أفكار تتناسق معها

أفكار أثرت في نفسي كثيراً حينما قرأتها

إنها أفكار طائفة من (أعلام الفكر) لم يستعملوها (الإلف للهوى) ، ولا (العادات الفكرية) فيما يتعلق بمسألة الإلحاد والكفر .
 إن خط (الإلف والعادة) في هذا الموضوع هو أن يذكر المؤمنون الأدلة على وجود الله انتى ترجع إلى دلالة الأثر على المؤثر ، وهى دلالة قوية فيحاول (الملحدون) متعسفون الرد عليها
 كلا أيها المؤمنون . إن المسألة (أقدس) من أن توضع هذا الوصف ، (وأوضح) من أن نحتاج إلى (برهان)
 يقول الإمام العام الحجة اس عطاء الله رضى الله عنه
 وإذا كان (الكائن) من لكائنات من هو عنى بوضوحه عن إقامة دليل (فالمكون) أولى بغناه عن الدليل منها .
 ويقول :

«إلهى ، كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟
 أيمكن لغيرك من الظهور ما يس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟
 متى غبت حتى نحتاج إلى دليل يدل عليك ؟
 ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟
 كيف يتصور أن يحجه شيء ، وهو الذى أظهر كل شيء ؟
 كيف يتصور أن يحجه شيء ، وهو انطأه قبح وجود كل شيء ؟
 كيف يتصور أن يحجه شيء ، وهو أظهر من كل شيء ؟
 كيف يتصور أن يحجه شيء ، وهو أقرب إليك من كل شيء ؟
 كيف يتصور أن يحجه شيء ، ونولاه ما كان وجود شيء ؟
 شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه

المستدل به عرف الحق (لأصله) فأنبت الأمر من (وجود أصله)
 (والاستدلال عليه) من (عدم الوصول إليه)
 وإلا (متى عاب) حتى يستدل عليه ؟
 (ومتى بعد) حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه ؟
 ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه :
 ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه
 فبيت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه ؟
 أو هل لها من الوصوح ما يسر له حتى تكون هي المظهرة له ؟
 ويقول :

« كيف يعرف (بالعارف) من به (عرفت المعارف) ؟
 أم كيف يعرف شيء من سبق وجوده وجود كل شيء ؟
 ويقول أيضاً :

« إنا لسنظر إلى الله ببصائر الإيمان .
 فأعناها ذلك عن الدليل والبرهان » .

ويقول رضي الله عنه :

« ورياب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان

لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل
 عليه وكيف (يحتاج إلى الدليل) من (نصب الدليل) ؟

وكيف يكون (معروفاً به) وهو (المعروف له) ؟

ب (محاولة) الاستدلال على وجود الله (محاولة حاطلة)

والسير على النحو الموحد الآن من الحدل في هذا الموضوع (سير منحرف
عن الطريق الصواب)

كيف نشأ هذا الخطأ ؟

ومتى بدأ هذا الانحراف في الحو الإسلامي ؟

• • •

بدأ رسول الله ﷺ بشر بالتوحيد ، وبدعو إلى إسلام الوجه لله ، سبحانه
في كل ما أتى به رسوله ﷺ :

بل لقد حارب ﷺ من أجل التوحيد :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم
منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله »

ومصت النون والأبام . ورسول الله ﷺ ماضي في رسالته « لا إله إلا
الله » (ولا يجيد عن ذلك) و (لا يتنازل)

وكان خصومه يقولون في سداجة وبلاهة :

﴿ أحمل الآلهة إهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾

ولكنه ﷺ لم يتحدث مستدلاً أو مرهنأ عن إثبات وجود الله

ولم يسأله أحد من الصحابة سواء أكان من أصل عربي ، أم من أصل غير

عربي عن إثبات وجود الله

مضى على ذلك (العهد المكي) ، ومضى على ذلك (العهد المدني) برغم

ما كان يزخر به من رجال من مختلف البيئات .

أما (القرآن) فإنه استفاض في (إثبات التوحيد) استفاضة كثيرة . وكان

(إثبات التوحيد) هدفاً من الأهداف الكبرى للقرآن

كان يوجه الإنسان إلى (لتوحيد في العقيدة) و (التوحيد في العادة) ،
(التوحيد في الاستعانة)

ولكنه لم يجعل (إثبات الإلهية) هدفاً من أهدافه .
وإني لأعلم أننا (ألفنا) أن نقول . إن القرآن يشتمل وحود الله عن (طريق
دليل العناية) ، أو عن (طريق دليل الخلق) ، أو عن (طريق دليل الأثر
والمؤثر) .

ونذكر على ذلك الاستشهاد من القرآن الكريم :
وفي القرآن من الآيات التي تتحدث عن العناية والتي تتحدث عن الخلق
الشيء الكثير

ولكن القرآن الكريم - وهذا (ما يعزب) عن بعض الأذهان - لم يأت
بذلك (مستدلاً ولا مبرهنًا)

وإنما أتى بها (متحدثاً عن نعم الله الكثيرة) التي يفيضها على الإنسان
ومتحدثاً عن (قدرة الله وعظمته) وعن أنه معهم رحيم ودود ، وقاهر
غلاب (لا يقف أمام قدرته عقبة) و (لا يسد أبواب رحمته معترض)
إن آيات انقرآنية من هذا النوع إنما تتحدث عن صفات الله في جلالها وفي
حماها ، ولم تأت قط (مبرهنة على الإثبات) أو (رادة على منكر)
وسار رسول الله ﷺ متناسفاً مع الحق القرآني

وارتفع القرآن بالعقيدة الإلهية (إلى (جو القداسة النقي) .
ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً الحريص كله ، على أن (يستقيم
المسلمون على القرآن كما أنزل)

وأن تكون المبادئ القرآنية وحدها هي التي يصدر عنها المسلمون في

عقائدهم وسلوكهم

وفي (عهد أبي بكر رضي الله عنه) سار المسمون على ما كانوا عليه في عهد الرسول (مرتفعين بعقيدة الإلهية) إلى امكان الأقدس فلا يمارون في وجود الله ولا يضعون وجوده سبحانه في محال الإثبات والإبكار والأخذ والرد وكذلك سار الأمر في (عهد عمر رضي الله عنه) ومن بعده حتى وصل الزمن إلى عهد المأمون وهو العهد الذهبي للأمة الإسلامية

وقد في المأمون مدحاً ما شئت

ولكن المأمون له من غير ماشك سيئات من كبريات السيئات الأولى منها . أنه دخل في الخلاف الذي كان بين علماء المسلمين - الخلاف الكلامي - دخول المسكن بطائفة المصير للأخرى ودخل بقوة الجيش والشرطة والمال لقد دخل دخول رعبة ورهة وما كان له أن يفعل ذلك وهو الحاكم والراعي ودخول الحاكم بين طوائف رعيته إنما يكون دخول الأب بين أبنائه ، مهدتاً ، مصلحاً موقفاً .

أو دخول الأخ الأكبر بين إخوته

لم يفعل المأمون ذلك وإنما . بكل بطائفة لحساب أخرى . وكل فيمن نكل بالإمام أحمد بن حنبل الذي وقف موقفاً كريماً على نفسه وعلى الأمة وقف كالحيال الراسية لا يرصى بما يراه لخلق بديلاً لم يتملق ولم يدهش وإنما أعلن رأيه في صراحة وفي وضوح وكل به المأمون . وتحسن الإمام في سبيل عقيدته ما يتحمل المحضون

أما الستة الثالثة من ميثاق المأمون : فهي أمره بترجمة كتب العقائد والأخلاق اليونانية .

ولقد كان المسلمون يترجمون الكتب قبل المأمون كانوا يترجمون كتب الطبيعة والفلك والأحياء وغيرها من العلوم في مجال الكون المادى .

ولكنهم كانوا يرون أنه إذا كانت عقائد الأمم الأخرى صحيحة فعدنا ما هو أصح منها بالأسلوب الإلهى .

وإذا كانت باطلة فمحذو عن الباطل .

إن العقيدة الإسلامية مصدرها القرآن

والقرآن كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تبريل من حكيم حميد .

فكيف يتأتى لقوم أن يتركوا هذا ليفرقوا العقيدة في كتب بشر تحطى وتصيب !

وكان موقف المسلمين إذ ذاك بالسبب للأخلاق والتشريع هو موقفهم بالسبب للعقيدة

وضرب المأمون بذلك عرض الحائط .

ودخلت هذه لترجمات في العقائد والأخلاق إلى الجو الإسلامى على استحياء .

ولكنها بالإلغ والتكرار والعادة أخذت وضعها قراءة ودرسا ومناقشة وجدلاً

وكان فيها مسألة إثبات وجود الله التى نشأت في الجو الوثنى اليونانى .

ونشأت لطرف خاصه هذا الجو اليونانى الذى تعارض فيه الدين بوثى مع منطق لعقل العبرى .

وكانت النتيجة أن الترم عماقرة اليونان العقل فى العقائد والأحلاق وأحصعوا - كل مسألة عقدية أو أخلاقية للعقل ولما فعلوا ذلك اختلفوا اختلافاً يائاً وأصبحت كل مسألة صغيرة أو كبيرة موضع اختلاف بين هؤلاء العاهرة . لا يصلون فيها إلى رأى واحد ولا يصلون بالتالى إلى اتفاق وكل من قرأ التاريخ العسى يعرف أن كل من يسير فى مسائل العقائد والأحلاق على المبح اليونانى يصل إلى نفس النتيجة ، الاختلاف والتعارض فى الرأى وعدم الوصول إلى نتيجة يقية . وإذا بصرى إلى كثير من ضاليل الفكر مستخدم مصدره المبح اليونانى إن الأدب المكشوف ننت حدوثه فى اليونان . وإن المسرح الفاهر الذى أسس على لأدب المكشوف ننت حدوثه فى اليونان

وإن التماثيل العارية ساهرة قاصحة - إنما مردها إلى اليونان وكل ذلك يرجع إلى بدعة فكرية يونانية هى « الفن للفن والأدب للأدب » .

وبدعة أخرى مردها إلى اليونان بوضاً هى « العلم للعلم » . وما كان كل ذلك فى الحضارات الأخرى لقد كان الأدب والفن ، والعلم فى الحضارات الأخرى يسير فى خدمة

المفضيلة . . والإنسانية . . والسمو الروحي .

فما نشأت الحصار اليونانية نزلت بالقيم والمعايير إلى المستوى البشرى في نقصه وتخطئه ، ولم تحاول قط السمو الإيسى إلى الآفاق العليا التي أحباها الله وأنزلها على لسان رسله .

ونزلت الحصار اليونانية بالعقائد أيضاً إلى المستوى الشرى في نقصه وتخطئه

وجعلت من مسألة وجود الله مسألة قابلة للأخذ والرد والإنكار والإثبات وترجمت هذه الفلسفة بأمر المأمون .

وأخذ الناس شيئاً فشيئاً يألّفون البدعة ، بدعة الجدول الشرى بما فيه من نقص وتخطئ لم يتفق عباقرة اليونان على رأى ، ولم يستقروا على أمر في عالم الفكر

وإد جمعت آراءهم نأكملها لم نَجدها إلا مجموعة من المتناقضات المتعارضة المضطربة التي لا يتميز فيها الحق من الباطل ولا سبيل « عقلياً » تميز حقها من باطلها .

لأن المقياس لعقلى للتمييز بين الحق والباطل في عالم العقليات م يوحده ولن يوحده . ولم يَخترعه أرسطو ، ولم يتدعه ديكارت

إنك حينما تكون بصدد التراث اليونانى الفكرى تكون بصدد ركाम مركوم لا تعرف « عقلياً ، أو « مطلقياً » حقه من باطله .

أمر المأمون بترجمة هذا التراث ودراسته والعناية به ، ولا كتبه الألسن وسمعته الآذان ، و « تداولته الأيدي » ، و « عكفت عليه الأدهان » و « تنسجته بعض العقول » فأخذت مسألة إثبات الإلهية تندرج شيئاً فشيئاً وكأنها طبيعة

والملاحدة في كل عصر يسرهم أن تأخذ مسألة إثبات الإلهية هذا الوضع
 ومادام (الإثبات) مشروعاً فإن (الرد) مشروع
 إنه يسرهم أن يتزل المورخون هذه المسألة عن جو القداسة ليرتوا بها هم إلى
 جو الإنكار، وكان هم ما أرادوا، وأصبحت المسألة مجالاً للحدس
 وما من شك في أن لكل أمة مقدسات.
 وإن من أقدس مقدسات الأمة الإسلامية عقيدتها
 فليرجع بها إلى جو لفطرة الطاهرة والشعور الصافي والداهية الواضحة
 وإذا «شد» عن ذلك «شاد» فليكن في «القانون» ما يمكن
 «القضاء» من «ردعه» ؟
 ﴿ومن يعصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾

المستعم الثاني

في علم الكلام

لفصل الأول

الفلسفة وعلم الكلام

« اتبعوا ولا تتبدعوا : فقد كفيتم »

وقد اتبع سلما الصالح هذه المصیحة السوية المعللة : هم يحاولوا قط
الابتداع وما يتأتى قط ، أن يشاء الابتداع في الأوساط الدينية السليمة ،
الأوساط التي تكون لديها اشعور الديني الحی بالأسوة الحسنة ، والمهم الواعي
لروح الدينية الخالصة

وقد نهياً لسفها الصالح انشأ بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ،
وهيات هم تلاوة القرآن ، في تدبر وفهم ، ففصصوا ، في صورة حاسمة ، بين
ما يتأتى للإنسان أن يسير فيه على ضوء التجربة ، وأن يتدع فيه ويخترع ، وينسق
ويؤلف ، وهو الأمور التي تتصل بالمادة والحواس ، وتتصل بعالم الطبيعة
أرضه ، وسمائه . وما بين أرضه وسمائه . وبين ما لا يتأتى للإنسان أن يصل إلى
معرفة إلا طناً ، أو وهماً ، وهو عالم ما وراء الطبيعة ، وعالم الخير والشر
وهذان العالمان عالم ما وراء الطبيعة وعالم الأخلاق كانا باستمرار
موضوع جدل ، ومثار نقاش بين الذين يريدون أن يصنوا بـ حقائقها عن
طريق العقل المجرد الذي لا يستند إلى دين .
وانقسم العقليون ، منذ أن دار البحث في هذه المسائل عقلياً ، إلى فريقين .

فريق يثبت ما وراء الطبيعة ولأخلاق . وفريق يسكرهما

وانقسم المشتون إلى طوائف لا تكاد تحصر وكل طائفة تنتسب إلى زعيم ترى أنه العقري على الإطلاق ، الموفق في كل ما يأتي وما يدع ، المصدق في كل ما يشير به أو يعمل له .

وكان من الطبيعي والأمر كذلك - أن تعلن كل طائفة ، الحرب على الطائفة الأخرى . مكذبة لها مستحيلة لها ، رامية زعيمها بالعباء والجهل (١) ومن الديهي أن السب في هذا النزاع . هو أن كل زعيم يختلف عن الآخر في الصورة التي يرسمها بعقله ، لعالم ما وراء الطبيعة ، ولأسس الأخلاق ومبادئها .

(ب) ومن الديهي أن سب هذا الاختلاف فيما وراء الطبيعة والأخلاق إنما هو اختلاف العقول في فطرتها وجنتها ، واختلافها بسبب الفطرة الموروثة ، وبسبب البيئة الطبيعية ، والبيئة المترلية . واختلافها بحسب الثقافة : كمها وكيمها . واختلافها بحسب مؤثرات وظروف وملاسات لا تكاد تدخل تحت حصر

إن نوع الطعام ودرجة الحرارة ، ودرجة نقاء الهواء ، ودرجة ارتفاع المكان الذي يعيش فيه الإنسان ، وهربه أو بعده عن شاطئ البحر واطبيعة ، والعمل ، ولأصدقاء . إن كل ذلك له تأثير على تفكير الإنسان ارتفاعاً وانخفاضاً وعمقاً وضخالة ومن الطبعي والأمر كذلك ، أما لو ربطنا المعرفة الخاصة بعالم ما وراء الطبيعة وعالم الأخلاق بالعقل - وشأنه كما بينا - لربطها بأساس يتأرجح ويتذبذب ولا يستقر على قرار

(ج) وقد حاولت الإنسانية منذ أن بدأت تفكر عقلياً في الإلهات

والأخلاق ، أن نختار مقاييس ، ومواردين عقلية - تقيس بها الصحة والخطأ
في هذين العالمين ، فكانت النتيجة إحقاقاً متتابعاً .

لقد أحقق منطق أرسطو - منطق القياس في معرفة حقائق الإلهيات
والأخلاق . وكانت أخطاء أرسطو في هذين الميدانين : لا تحصى ، ولكنها ،
ولعب الهجوم عليها : ينس تلاميذ أرسطو . وهم أيضاً فلاسفة ، من
إصلاحها ، وانهمروا في ميدان الدفاع عنها .

وأحقق منطق فرسيس بيكون - منطق الاستقراء في الكشف عن عالم
الغيب وعالم الخير والشر وما كان يتأتى له . أن يكشف عنها ، وهو منطق
الكشف عن القوانين المادية . وتبين الحقائق في عالم الحس : عالم الكون
والفساد ، ولم يتناول قط إلى كشف الحقائق في عالم البقاء والخلود

وأحقق مذهب ديكارت ، ولم يرص عنه كثير من معاصريه من الفلاسفة ،
ولم يرص عنه كثير من أتى بعده منهم ، وحاجبوه في حياته وبعد مماته
وبقيت حقائق ما وراء الطبيعة والأخلاق . بعد ديكارت ، كما كانت
قبله ، موضوعاً للجدل العقلي الذي لا ينتهي .

والملاحظ على كل حال منذ أن بدأ التفكير العقلي في الإلهيات
والأخلاق . أن السنوات تتوالى ، وعشرات السنوات ، وعشرات القرون ،
ولم تنته الإنسانية « عقلياً » إلى حل هذه المسائل

إنها لم تنته إلى حبها « عقلياً » في العرب ، ولم تنته إلى حلها « عقلياً » في
« الشرق » . ولم توفق إلى حبها فوق قمم الجبال . ولم تنص إلى حلها على
شواطئ البحار

(د) إن المعنى الذي يستنتجه من ذلك كله - وهو استنتاج يهرب من أن

يكون مديبياً . أن حل مشاكل ما وراء الصبغة والأحلاق . عن طريق العقل : مستحيل

وأن وضعها إبدن موضع البحث العقلي : خطأ .
وأنه يجب أن تعيد الإنسانية النظر في اختصاصات القوى والملكات البشرية

وإد أعدت الإنسانية النظر في اختصاصات القوى والملكات البشرية .
فإنها ستجد لا محالة - أن الوصف القديم - الوصف الذي كان قبل نشأة هذا اللون من البحث العقلي عند الإغريق ، هو لحكمة بعينها
وهذا الوصف القديم . هو الذي أعاده الإسلام ، واتبعه المسلمون ، في
القرن الأول الإسلامي ، واستمر منذ بدأ الإسلام إلى نشأة المعتبرة
أما هذا الوصف فهو أن لكل قوة من القوى الإنسانية اختصاصاً معيناً
لا يتأتى أن تتعداه ، ففوق الحس مبداءها الطبيعة ، بل الصاهر الحس من
الطبيعة

إن مبداءها الألوان ، والأصوات ، والروائح ، والطعوم
إن مبداءها . الإحساس الحسائي في الجسم البشري وفي خارجه
وهو مبداءها في الخلود التي رسمها الله تعالى لها
وميدان العقل ودائرته ، أي هو الفهم الواعي لما يلاحظ ويشاهد
ويُحس ، ثم الاستنتاج ، والاستبصار مما يلاحظ ويشاهد ويحس .
فإذا كان الأمر أمر عب ومساتير ، فليس للعقل في ذلك رأى ولا اختراع
ولا ابتداء . وكل صواب من ذلك يقوم به العقل ، إنما هو محيط عشواء ، وسير
في مهاب ، وسياحة في صحراء دون مرشد - لا علامات فيها ، ولا أدلة

ومن هنا كان هد استاح العقلى الضخم - فى ما وراء الطبيعة
والأخلاق - يشوبه الوهم فى الكثير من أسسه
وفى الكثير من نتائجها .

ولا يمكن لاهتداء « عقلياً » إلى ما فيه من الصواب الثابت ، أو الخطأ
والانحراف

ولكن الإنسان ، ليس حراً وعقلاً وحسب ، بل ليس الإنسان إنساناً بحسبه
وعقله فقد ينزل به حسه وعقله إلى المستوى الحيوانى المبحث ، فيعيش عيشة
السائمة ، بل قد ينزل به حسه إلى مستوى أقل من المستوى الحيوانى ، ويصير من
هذه الطائفة التى ينطق عليها قول الله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

والإنسان إذن إنسان بروحه الشفافة ، ونفسه الركيية ، وبصيرته المصينة ،
إبه ذلك الذى تركى ، إبه الذى صفت روحه صفاء يقره من الملائكة
وإذا ما صفت الروح ، وتركزت النفس راد عن المصيرة ما تراكم عليها من
صد كان يحجبها باستمرار عن أداء وطيفتها ، وإذا ما تركت النفس ،
أصحت محلاً للإلهام وللمعرفة المسيرة فى عالم ما وراء الطبيعة وعالم الخير
والشر .

وفهم الحكماء القدماء قبل العصر اليونانى ذلك فلم يستعملوا قط المجدل
أو القياس ، أو الانتداع العقلى ، والاحتراع المنطقى وإنما استعملوا - من أجل
معرفة الإلهيات - التست والمعادة والذكر . واستخلص النفس لله ، أو
بالتعبير القرآنى - لتزكية كانت تزكية النفس إذن . وسيلتهم إلى المعرفة وكلمها
رادت تزكية النفس ، أصبح الشعور بعالم ما وراء الطبيعة ، وأصبح التمييز بين

الخبر والشر: ميسورٌ واضحاً.

(هـ) وسبيل تزكية النفس هذا من أجل المعرفة سبيل فهمه الكثير من
الألمعيين في عصر اليوناني ، ومما لا شك فيه ، أن بذوره الأولى جاءتهم من
الشرق .

لقد كانت فرقة الأورفية في العصر اليوناني الأول تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً
واضحاً .

وكانت الفيثاغورية من بعدها تسير في هذا الطريق ، وتؤمن أنه الوسيلة
الصحيحة للوصول إلى عالم العيب : لقد كان الجانب التسكّي . وكان
العادة وكان الذكر ، كان كل ذلك وغيره مما يتصل بوسائل استخلاص النفس
لله شيئاً عادياً في الفيثاغورية .

لقد كانت الفيثاغورية تصفية نفس وتطهيراً أخلاقياً ، كانت ابتعاداً عن
الرجس ، وانقياساً في عالم الخير ، وكانت معبرة مختصرة ، تطهيراً للباطن
والظاهر .

وحاءت الأفلاطونية

وكان أفلاطون يصطفي من تلاميذه ، ذوي النفوس الشافة ، والشعور
المرهف . وهم قلة قليلة ، فيسلط بهم سبيل التسك ، سبيل التزكية
وعنى أثر ذلك حاءت الأفلاطونية الحديثة التي تنتسب إلى أفوطير
المصري والتي بلغت بطريق التسك والتزكية شأواً بعيداً

ولكن الخائب الميواني في الإنسان كان يحرم باستمرار إلى الإحلال إلى
الأرض ، واتباع الهوى ، ولم يكن طريق التطهر والتزكية من السهولة بحيث
يلحظه كل طارق .

إن الارتفاع بالنفس سبيل شاق - ومن أجل ذلك عدل الشطر الأكبر من
اليونان عن طريق التركية - إلى طريق الحذل العقل ، فكانت الفلسفة العقلية
اليونانية ، وكان الانحراف عن الطريق السليم .

والذى تولى كبر ذلك ، ودعم أركانه ، وبلغ به القمة ، إنما هو أرسطو .
ونما لا بممارسة فيه ، أن الانحراف في البحث عما وراء الطبيعة يدين بالكثير أو
بالأكثر إلى أرسطو

وأحقق أرسطو فيما وصل إليه من نتائج عما وراء الطبيعة
وأحقق الذين تابعوه

وأحقق الذين أتوا من بعدهم .

وترى الإنسانية هذا الإخفاق المتتابع ، ولكن المحاولات ، لمعرفة العيب عن
طريق العقل ، لم تنته بعد .

ومع ذلك فقد كان عدد لكثير من مفكرى اليونان حُدس صادق بالوضع
الصحيح في مثل هذه الأمور . لقد كانوا يؤمنون بأن الفكرة الصحيحة عن
معالم العيب ، وعن الأخلاق إنما تنأت عن طريق رسول يتلقى عن الله الوحي
ليبلعه إلى بى البشر . والقصة التالية توضح هذا الشعور لديهم

فقد اجتمع كما يقص أفلاطون - سقراط واثنان من الفيثاغوريين هما
سمباس ، وقاس ، وأخذوا يتحدثون عن حلول النفس ، والاستدلال
عقياً على بقائها ، فلا يكاد يستقيم لهم الدليل في وصرح وثبات ، ثم
« يسكت سقراط ويسكت الجميع » .

وبعد هبة بقول سمباس . « إن العلم بحقيقة هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً
في هذه الحياة ، ولكن من الحزن لئاس من البحث قبل الوصول إلى آخر

مدى العقل فيجب إما الاستيثاق من الحق ، وإما إن امتنع ذلك -
استكشاف الدليل الأقوى . والتدبر به في اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع
البحر على لوح من خشب . مادام لا سبيل لنا إلى مركب آمن ، أعنى إلى وحي
إلهي .

المركب لأمن الآمن إذن ، إنما هو الوحي الإلهي ، أما العقل فمثل من
يتدبر به كمثل من يخاطر بقطع لبحر على لوح من خشب
لقد حاول اليونانيون إذ ذاك البحث لعقلي ، لاختيار حصم ما وراء الطبيعة .
لأنه لم يكن لديهم وحي يرجعون إليه في الهداية والإرشاد . ولو كان لديهم هذا
الوحي لما احتاروا العقل به بديلاً ولما كانت الفلسفة اليونانية العقلية ، ولقى
توزيع اختصاصات القوى الإنسانية والمذكات الشريفة على استقامته الأولى
الحسن لعالم الطبيعة :

والعقل للاستنتاج مما يأتي به الحسن .

أما الروح والنصرة فإنها بعالم العيب . وعالم الخير

ونقد تأثر علم الكلام الإسلامي بالتأثير العقلي اليوناني في سبحة العقلي ، وفي
تحاوه الاحتراس الاستداعي ، وكان علم الكلام بذلك فلسفه يرتطم بكل
ما يعترض الفلسفة من عقبات وأصابع بمقدار قربيه من الفلسفة ما كان يسعى
له من قداسة ، وكان ما تنعده عن لبس القرآن السلم الفطري مشيراً لكثير من
المشاكل التي تصرق المسلمين وتجمعهم فرقاً وأشباعاً متنافرين متخاصمين
ومع ذلك فإن العودة إلى لبس السليم مبسورة . وعلى قادة المسممين فكراً
وديباً أن يساهموا في إيصاله

افضل الثاني علم الكلام الراهن

١

تمهيد (١)

كانت الدعوة الإسلامية - منذ نشأتها - دعوة إلى التوحيد ، وقد عمل الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، جاهداً في أن يوطد أركان هذه العقيدة في نفوس الدين اتبعوه ، ولم يفعل ذلك عن أمره ، وإنما فعله مُنفذاً للوحي المصوم ، وبلايات القرآنية لكرامة ، ذلك أن القرآن في جميع أحرائه قد حمل هذه العقيدة ، أولى اعتقاده الجوهرية . « لا إله إلا الله » إنها كلمة التوحيد ، وهي كلمة الإخلاص ، وهي أول ما ينطق به الشخص حينما يعتنق الإسلام وتوحيد الله هو جوهر وحدة الدين :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً وأبداً وأوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين

(١) نقد تعدد علم الكلام على مر الزمن عن القرآن ، مقترناً مع الفلسفة ، حتى إنه ليوشك أن يصير فلسفة عقيدة بحتة ، ويرد أن يرسم صورة موحدة لكل الأديان ، صورة هكلية جامعة الاختصار ، إذ يسمى أن يكون عليه علم التوحيد ، وذلك يقتضي أمرين : الهدم والبناء ، لذلك ستحدث أولاً عما يجب أن يزول عن مباحث علم الكلام ، ثم نتحدث عما يجب أن يتجه إليه

ما تدعوهم إليه الله يحثي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴿٢١﴾ .

ولقد كان اهدف الأول لجميع الرسل السابقين هو - لتوحيد

والقرآن صريح في هذا المعنى وفي تأكيده ، وفي إظهاره -

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله ﴾

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال - يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره ﴾ .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

غيره ﴾ .

وبين القرآن أن هذه العقيدة عامة مطلقة ، بها العقيدة الأولى التي أكدها

جميع الرسل :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا

فاعبدون ﴾ (٢٢) .

وحينما يقول الله ، سبحانه وتعالى :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول

عليكم شهيدا ﴾ (٢٣)

فإنه أثر أن يقول - « أمة » بالإفراد لا انمما ، ولا يعنى شيئا آخر غير الأمة

الإسلامية الواحدة الموحدة .

والتوحد إذن سار في جمع أخراء الرسالة الإسلامية ، ولا شك أن وحدة

(٢) الشورى : ١٣

(٣) الأنبياء ٢٥

(٤) النقرة ١٤٣

العقيدة ووحدة الأخلاق : من أهم العوامل التي تتجه بالمؤمنين إلى الوحدة الشاملة :

« للمؤمن أخو المؤمن »

« المؤمن للمؤمن كاليان يشد بعضه بعضاً »

« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الحمى »

« أحب لأحيك ما تحب لنفسك . . . »

والإنسان لا يحتاج إن تعمق كثير ، ليرى أن الدين الإسلامى إنما هو دين التوحيد ودين الوحدة ، وأن الرافى - والاختلاف ، والتفرق والشذوذ : ليس لها فى دين الله من مكان ومع ذلك فقد تفرق المسلمون .

ولسنا الآن بصدد البحث عن أسباب تفرق المسلمين واختلافهم - فى شىء من التفصيل - ولكننا بصدد البحث عن وحدة العقيدة وعن الأسباب التاريخية القديمة التى أخذت - ولا تزال - تهدم فى الأساس المتين الذى أقامه وعمل على تمكيه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه

وإذا ما تبينا هذه الأسباب تبينا فى الوقت نفسه طريقة تلاهى الاختلاف فى العقيدة وربما تبينا ، من ذلك بعض أسباب تفرق المسلمين ، وبعض العلاج لإزالة هذا لتفرق ، فما لا شك فيه أن الاختلاف فى العقيدة من دواعى التفرق فى الأمم ، بل فى الأمة الواحدة ، وأن الاتفاق فى العقيدة من دواعى الوحدة وقد أتى على هذا الاختلاف فى العقيدة أمد من الدهر طويل فتسكن من الفوس ، ولا ماض إدن من أن يستفيض فى شرح الداء حتى يمكن علاج فى شىء من التوفيق إن شاء الله ، تعالى .

يبد أنما سوف لا يقتصر على ذلك ، فإن الاختصار على ذلك نصف
المرحلة ، ولو اقتصرنا عليه لكنا مقصرين ، ويريد إدر الله المستعان - أن
محاول في المرحلة الثانية ، بيان طريقة السلف الصالح في الاعتقاد وفي
الاستدلال عليه ، وأن نصرب أمثلة لبعض مظاهر إيمانهم القوي الذي عبر وجهه
العام وشعر كلمة الله .

ومما لا شك فيه : أن الاختلاف في لعقائد ، وتمرق الأمة لوحددة إلى فرق
متعددة . آثار سيئة ونتائج وخيمة

ولا ريب أن المسلمين ، على نكرة أبيهم . يودون أن يعود الوحدة في
لعقيدة إلى ما كانت عليه في الصدر الأول ، وبهم يتلمسون الوسائل لإحياء
الشعور الديني الذي يأتي التفرق والتنازع في محالات الإيمان .

وقد ترك الرسول - صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه : أبو بكر
وعمر ، رضي الله عنهما لأمة الإسلامية ، وكان يتمثل فيها خير تمثيل . الآية
انقرآنية للكرامة :

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٥)
والآية الكريمة .

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(٦) .

يبد أن لأمة الإسلامية تفرقت بعد وحدة ، وتنازعت بعد اتفاق
يعود فتساءل ، ما العوامل التي أدت إلى الاختلاف في العقيدة ؟
وليس يحسن تبين هذه العوامل وتوضيحها ، فإن القرآن الكريم والسنة

(٥) الأب . ٩٢

(٦) المؤمنون : ٥٢

الشرقة قد بينا ذلك في وضوح ، وفي أسلوب لا لرس فيه ، وبيننا أيضاً العلاج
الذى يسحق ، وقد وصح سلفنا الصالح نهج الكتاب والسنة في أمر العقائد
والأساس الأول في القرآن هو التمييز الحاسم الذى يميز بين ميدانين
أطبق لنا الحرية فى أن نبحث فى أحدهما ما شاء الله لنا أن نبحث ، مؤيدين
أو شارحين أو متصهمين : وذلك هو ميدان الآيات والحكمات أما الآخر الذى
ليس لنا أن نبحث فيه فإنه المشابه ، يقول الله تعالى

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات فأما الذين فى قلوبهم ريغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء
تأويله وما يعلم تأويله إلا الله وراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا
وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (٧)

أما الأحاديث الشريفة التى ترسم لمؤمنين الطريق الذى يجب أن يتبعوه
احتفاظاً بالوحدة ، واتباعاً للبهج الصحيح ، وانتقاء للطمأنينة القلبية . فإنها
كثيرة . وسذكر منها الكثير فى أثناء هذا البحث ، شاء الله تعالى . أما الآن
فسكتنى بثلاثة .

قال ، صلوات الله وسلامه عليه « اتعوا ولا تتدعوا . فإنما هلك من
قبلكم بما اتدعوا فى دينهم . وقالوا بآرائهم . وحالفوا من أسائهم . فصلوا
وأصلوا »

وقال صلوات الله وسلامه عليه ، فى أحكام دقيق ، وفى إيجاز محكم .
« اتعوا ، ولا تتدعوا : فقد كهينم » .

وعن على ، رضى الله عنه . قال سمعت رسول الله ﷺ ، يقول .

« أتأني حبريل ، عليه السلام فقال : يا محمد . إن أمتك مختلفة بعدك .
 قال . فقلت : فأين المخرج ؟ فقال : كتاب الله
 رسمت الآية القرآنية الكريمة ، ورسمت الأحاديث النبوية الشريفة طريق
 الوحدة في العقيدة والاطمئنان إجمالاً وعموماً وسيبدأ الآن أن يسير . المراد
 بالمحكم والمتشابه . ونبين طريق الاتباع وطريق الابتداء . وشرح كيفية التزام
 كتاب الله حتى يخرج من الاختلاف لنصوى تحت راية الاعتصام بكتاب الله .
 في وحدة متناسقة ، وبالله التوفيق :

٢

مشكلة القدر

« اتعوا ولا تتدعوا فقد كفيتم » .
 هذا الحديث الشريف يلخص الملهج الذي يحب أن يسير عليه العالم
 الإسلامي في أمر العقيدة
 يحب أن يسير عليه رأياً وفكرة . ويحب أن يسير عليه من قل ذلك -
 استعداداً وتأهلاً
 وهذا الاستعداد والتأهل يتأتى على الخصوص بواسطة دور التعلم في جميع
 مراحله وبوساطة الصحافة والكتب التي تُنشر
 وهذا الحديث الشريف يسانده في معناه ما لا يكاد يحصى من الآيات
 القرآنية والأحاديث النبوية . والآثار التي وردت عن كبار الصحابة وكبار
 التابعين ، يقول الله تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾

لقد كمل الدين ، فكما أن الله كل استداع ، وإذا كان الدين كاملاً فما علينا إلا الاتباع ، أما طريقة الاتباع ، فقد حددها الله في الآية الكريمة التي سبق أن ذكرناها (٨) والطريقة إذن أن نتبع الآيات المحكمات في فهم ووعي وتأيد ، وهي ليست مثار جدل ولا حصومة ، وليست محل نزاع يحتدم ، أو أهواء تثور ، وأن تؤمن بالمشابهة كما ورد ، وألا تتبعه متأولين

فإن تتبع المشابهة : إنما يشأ عن القلوب التي تلونت بالزيع والانحراف . وهي التي تتبعه استغناء الفتنة ، وتتبعه لتأويله وتأويله إنما يعلمه الله ولكن ما هو هذا التشابه ؟

لقد اختلف فيه أئمتنا ، ولا نريد أن نتعرض لهذا الاختلاف ، وإنما نريد أن نقول ، في اطمئنان وثقة :

إن المسائل التي نهى الرسول عليه الصلاة والسلام ، عن الخوض فيها ، والمسائل التي كان الاتجاه العام في عهد الخلفاء الراشدين ينصر من الخوض فيها هي من التشابه فالمشابهة إذن . هو ما تنفر منه الروح العامة للدين الإسلامي في عهده الأول : عهد الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وخلفائه الراشدين وتخرج من الخوض فيه .

مثل ماذا ؟

(٨) وهو قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشبهات فأما الدين في قلوبهم ريب فيسعون ما تشابه منه انتفاء الفتنة وانتفاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والرسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب)

أما أولى مسائل المنشأه التي يريد أن نتحدث - بتوفيق الله - عن شيء من تاريخها فهي : مسألة القدر

بعد شغبت مسأله القدر ، أو الجبر والاختيار ، أو أفعال العباد ، عقول الإنسانية منذ أن كان الدين ، أى منذ ابتداء تاريخ الإنسان على ظهر الكرة الأرضية

وإذا أثرت مسألة القدر فى أى وسط كان ، مهما كان قليل العدد ، فإنها تنقسم إلى قسمين . يقول أحدهما بالجبر ، والآخر يقول بالاختيار لقد أثارها اليهود فى دينهم ففرقت بينهم . وقال بعضهم بالجبر ، وقال الآخرون بالاختيار

وأثرت فى السبابة النصرانية على مدى التاريخ فكان النزاع والجدل وكان لتحيز لرأى والتعصب له وانقسم رجال المسيحية إلى فريقين يختصمان وأراد رسول الله : صلوات الله وسلامه عليه ، أن يتلافى انشقاق الأمة بسبب إثارة هذه المشكلة فكان يهوى دائماً عن إثارتها وعن الجدال فيها روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : « خرج رسول الله ﷺ ، على أصحابه ذات يوم ، وهم يتباحثون فى القدر ، فخرج مغصاً حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم : هذا صلت الأمم قبلكم : باختلافهم على أسياهم ، وصرهم الكتاب بعصه ببعض ، وإن القرآن لم يزل لتضربوا بعصه بعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به »

وعن أبي هريرة ، قال : خرج رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال :

أيهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هيك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر . عزمتم عليكم ألا تتنازعوا »

واتخذ رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، موقفاً حاسماً حارماً بالنسبة لمع الخلاف في هذه المسألة ، أوحى مجرد إثارتها

ومضى رسول الله ، ﷺ ، راضياً مرضياً ، وهو لا يسمع ، حتى النقص الأخير من حياته الشريفة ، بأن تثار هذه المسألة

ولم تثر هذه المسألة في عهد سيدنا أبي بكر لا إشغال المسلمين بتوطيد دعائم الأمة الإسلامية ، مصروفين بذلك عن العث في دين الله

وكانت درد سيدنا عمر كفيhle برد كل من تحدته بفسه بإثارة هذه المشكلة إلى حادة الصواب .

ومسألة القدر إذن : من المتشابهة . إنها من أهم مسائل التشبيه وهي فضلاً عن ذلك عصية على الحل ، إنها ليست قائمة للحل ، وهي ليست قائمة للحل سواء أثيرت في الشرق أو في الغرب ، وسواء أثيرت في القديم أو في الحديث ، أو أثيرت في الأدبية أو في الحضر ، إنها مفرقة بين اساحين فيها ، ومهما طال الحدل بينهم فسوف لا يتبنون إلى نتيجة ومن أحل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها .

ومع ذلك فقد بدأت هذه المشكلة تتسلل ، شيئاً فشيئاً إلى المجتمع الإسلامي حتى لقد احتلت يوماً ما مركز الصدارة في الفكر الإسلامي النظري ولقد مهدت السياسة أولاً لهذا التسلل . وكانت السياسة أول عامل من

عوامل إفساد التفكير النظري الديني في المجتمع الإسلامي السليم ! كتب معاوية بن أبي سفيان - بعد أن تولى الملك - إلى المعيرة بن شعبة

يطلب منه أن يكتب إليه بالحديث الذي كان يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه
أحياناً ، وهو على المسر . فكتب إليه المغيرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في
دبر كل صلاة إذا سلم :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل
شيء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا راد لما
قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد »

وأحد معاوية يديع هذا الحديث الشريف من فوق المنابر مؤمناً بأنه من
عوامل توطيد مركزه في الأمة

هذا الاستعانة السياسي للأقوال الشريفة ، أثار بعض الضمائر التي لم تطعم
إلى هذه الصورة التي اعتبروها استخداماً للدين والتي لم يروا فيها مظهراً للخضوع
والانقياد له ، فهاهم يعارضون فكرة الجبر التي أخذ معاوية يبشر بها مستنداً إلى
هذا الحديث الشريف

ولسنا الآن بصدد التأريخ الكامل لهذه المشكلة ، ولقد يسأنا على الأقل
أمرين .

أحدهما . هو أن هذه المشكلة من المتشابهة ، لأن الرسول ﷺ هي عن
المعرض فيها .

ثانيها . أن السياسة هي التي بدأت يادخال هذه المشكلة في البيئة
الإسلامية .

أما النتيجة التي نريد أن نصل إليها من وراء كل ذلك ، هي أن البحث
في هذه المسألة . يجب أن ينتزع كلية من محيط الفكر الإسلامي ، وأن تنتزع
المسألة مما يسموه علم الكلام ، فإذا ما فعلنا ذلك فإننا نكون قد أولنا شيئاً هاماً

من الأسباب التي تفرق المسلمين بسبب الاختلاف في العقيدة ، ويكون بذلك قد ساهمنا بقسط وافر في سبيل لتوحيد و بالله الموفق .

٣

مشكلة الصفات

(١) يقول الله تعالى .

﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾

ويقول سبحانه : ﴿ليس كمثله شيء﴾ .

ويقول ابن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ مستنقحاً ومرشدٌ .

« إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بقياس أو بإنعام نظر »

أما حكماء المصريين القدماء . فإيهم يقولون ، في حكمة حكيمة

« محال على من يفنى . أن يكشف النقاب الذي تنف به من لا يفنى

ومن يفنى : هو الإنسان .

ومن لا يفنى هو الله الباقي :

وسواء نظرنا إلى التراث الديني الصحيح من قرآن و سنة أو نظرنا إلى

أصحاب الآراء السليمة التي فهمت الأوضاع الدنيوية فهماً بتلاءم مع الروح

الصحيح للتدين . فإننا نجد أن الانحياز العام في ذلك كله يبتعد بالإنسان ابتعاداً

تاماً عن أن يقول في الله سبحانه دائماً وصفات - برأيه

« تفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في دانه فتهلكوا »

إن هذا الأثر يرسم السج السليم ويعبر عما يجب أن يكون عليه الإنسان إذا

أراد النجاة وانتفى السلامة

وما من شك في أن البحث في الذات والصفات الإلهية . من ناحية الصلة
بيهما . توحيداً أو تغايراً ، والبحث في الصفات الموهمة للتشبيه نفيّاً أو تأويلاً بما
هو تهجم من الإساءة على مقام لا يرقى إليه وهم متوهم ولا حيال متحيل .
وبه الحق . أن كل ما حطر بيانك فأنه بخلاف ذلك

وقد كان من الطبيعي أن يقدر الباحثون أنفسهم باعتبارهم من الشرح حق
قدره . وأن يقدروا الله ، حق قدره

ولو سار الأمر على هذا نسق لما تطاول الشر إلى مقام الله ، ولما تجاوزوا
حدودهم وبالتالي لما كان هناك اختلاف وسارع واقترب في موضوع الصفات
الإلهية .

ولكن بعض الباحثين لم يلتزموا حدودهم كأفراد من الشر ، وعزهم
عقلهم ، وخذعهم شيطانهم . فحاولوا يعقوبهم أن يفتروا على الله ما لم ينزل به
سلطاناً ، فكانت المشكلة الثانية في علم الكلام - مشكلة الصفات - التي
أثارت الجدل والخصومة والتمزقة بين المسلمين ، وجعلتهم فرقاً تتناز وتخاصم ،
ويرمي بعضها بعضاً بالانحراف والصلال

(ب) وشأت المشكلة . حيناً بدأ الباحثون يعرضون للآيات التي وردت
في القرآن الكريم ، والتي توهم التشبيه ، كاليد والوجه ، والاستواء ، أو التي
وردت في الأحاديث . كالقول . والصورة . والأصابع

بدأت المشكلة : حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ ومثلها . تأويلاً
لها أو نفيّاً لمعناها ، أو تفسيراً وشرحاً

ومد أن بدأ الحديث فيها بدأ الخلل حولها والنزاع ، واستمر خلال العصور

عصراً تلو عصر . ولا يزال الآر يثار الحدل بين أنصار الإمام الأشعري ،
وأنصار لإمام ابن تيمية

وكان النزاع حول موضوع الصفات ، وصلتها بالذات على وجه العموم يسير
في هدوء أحياناً ، وفي عصف أحياناً أخرى .

وقد تولد عنه كثير من المشاكل لدمية « كمشكلة خلق القرآن »
والمشاكل المبسلة للأفكار والخواطر ، كمشكلة « الصلاح والأصلح » .
وحدثت هذه المشاكل وكثرت وتعددت ، كدليل واضح على عجز العقل
البشرى لحاج العظمة اللاهائية الإلهية

ومع الإحراق المتتابع في البحث في هذا الموضوع ، منذ الآماد المتطاولة
فإن الشرية لم ترعو ولم تنعط ، ولا تزال مستمرة في البحث ، تتحط فيه
وتتنازع وتتجادل وتختصم ؟

(ح) والحكمة كل الحكمة إذن ، إنما هي موقف سلفنا الصالح ، وضوان
الله عليهم ، فقد هدتهم بزعمهم الدينية السليمة إلى الموقف السليم ، فـ « قدروا
الله حق قدره » وقدروا أنفسهم حق قدرها ، وسلموا من البيلة ،
والاصطراب ، وسلموا من لتارح والاختلاف ، وكانو هرقة واحدة
لقد اتخذوا مبدأً أساسياً ، وقاعدة لا مرأ فيها ، لا شك ، هي قوله تعالى .
﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

وهذه الآية تسف كل تشيه نسفاً مطلقاً . فاحترر سلمنا الصالح عن
لتشيه ، حتى لقد قالوا : من حرك يده عند قراءة قوله تعالى :
« خلقت يدي » أو أشار بأصبعه عند رواية الحديث الشريف
« قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن »

وجب قطع يده ، وقطع أصبعه .

احترز السلف عن التشبيه ، ولكمهم احترزوا عن التعطيل أيضاً :
فهم يشنون لله اتباعاً للقرآن - الإرادة - والعلم ، والصفات الكريمة التي
ورد بها القرآن الكريم

والموقف الذي يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن . تحاه كلمات
الصورة ، واليد ، والبرول ، إنما هو . الإيمان بها مع التثنية لله ، تعالى ، عن
الحسية وتوابعها ، وليس معنى ذلك ، أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل
لها معنى يلين بجلال الله وعظمته . مما ليس بجسم ، ولا عرض في جسم
وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله ، ﷺ . فهو
كما وصفه ، وهو حق بل المعنى الذي أراده ، وعلى الوجه الذي قاله .
والأ يحاول لها تفسيراً ولا تأويلأ :

وشعار السلف معروف في أمثال هذه الكلمات : إنه أمرها كما جاءت «
وكانوا يذكرون في هذه الظروف الآية القرآنية الكريمة :
﴿ هو الذي أمر عبيك الكتاب مه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات ﴾ .

﴿ فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء
تأويله ﴾ .

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ .

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو
الالباب ﴾ .

ولا ماص ، لمن يريد أن يحتز عن السبع ، من أن يمنع عن التأويل

والتفسير ، وأن يمر هذه الكلمات كما جاءت .

ويلخص الإمام الرازي في كتابه : « أساس التقديس » المذهب اسلي في
كلمات موحزة دقيقة كل الدقة يقول :
« إن هذه المتشابهات ، يحب القطع فيها بأن مراد الله تعالى ، وبها شيء غير
ظواهرها ، ثم يحب تفويض معانيها إلى الله ، تعالى ، ولا يحوز الخوص في
تفسيرها »

هذا هو مذهب السلف في الصفات ، وهو مذهب لا يثير جدلاً
ولا خصومة وليس من طبيعته ذلك إنه مذهب العبودية الصحيحة
وهو المذهب الذي يتمذهب به كل من عبده نزعة التدبير السليمة
وهو مذهب الإمام مالك . وإمام الشافعي . والإمام أحمد بن حنبل ،
والسلف الصالح ، رضي الله عنهم .

ومن الطبيعي أن يكون مذهب الفرقة الناجية
ويجب على كل المسلمين العاقلين لديهم ، أن ينشروه في جميع أنحاء
المسكة الإسلامية فهو أمانة في عنقهم ، وهو رسالة يجب عليهم نشرها معاً
للحيرة والاضطراب عند الأفراد ، ومعاً للاختلاف والشارع بين الجماعات
ونشراً للإسلام ، وتوحيداً للكلمة بين الأفراد والجماعات الإسلامية ويجب أن
ينتزع بحث الصفات كلية من محيط الفكر الإسلامي ، وأن تنتزع المسألة
مما يسمنه علم الكلام ، فإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أزلنا سبباً آخر هاماً من
الأسباب التي تفرق المسلمين بسبب الاختلاف في العقيدة ، ويكون بذلك قد
ساهمنا بقسط وافر في سبيل التوحيد

وجود الله

مشكلة القدر - من المباحث التي يجب ألا يبحث فيها المسلمون
ومسئلة الصفات - من المباحث التي يجب ألا يبحث فيها المسلمون .
ويجب أن تتبرع هاتان المشكلتان من مباحث علم الكلام ، يجب أن تتبرعا
بكل ما هما من فروع ومن شعب .
أما المسألة الدشة التي يجب أن تتبرع أيضاً : فهي البحث في وجود الله ،
سبحانه وتعالى .

والواقع أنه ، حين بدأ الرسول ﷺ ، الحهر بدعوته ، بعد نحو ثلاث
سنوات من الإسرار لها ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه . لم يبدأ بإثبات وجود
الله ، وإنما بدأ بالرمزة على صدقة هو وتحدى العرب بصدقه . ومن قبل
ذلك . حين فاجأه الملك في العار ونزل الوحي لم يبدأ الملك أو م بدأ الوحي
بإثبات وجود الله ، وإنما بدأ الأمر بأن يقرأ الرسول ، صلوات الله وسلامه
عليه ، باسم ربه

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ .

ومضى لقرن لأول كله ولم يحاول إسناد قط : أن يتحدث حديثاً عابراً
أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله ، تعالى ، ومضى أكثر القرن الثاني والمسألة
فيما يتعلق بوجود الله لا توصع موضع لبحث .
ذلك أن وجود الله - إنما هو أمر بدهي لا يسعى أن يتحدث فيه المؤمنون بغير

أو إثباتاً ، ولا سلباً أو إنجافاً . إن وجود الله : من الفصايا المسممة التي لا توضع في الأوساط الدينية موضع البحث . لأنها نظرية

وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص في إيمانه دخل وفي دينه الحرف لما نعى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبت البشر ، تعالى الله عن ذلك علوً كبيراً . ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم يحن لإثبات وجود الله وإثباته جاء لتوحيد الله . وإذا تصفحت القرآن ، أو التوراة حتى على وضعها الحالي ، أو الإنجيل حتى في وضعه الراهن فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد تحدث في أي سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية ، أو احست مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية .

والقرآن الكريم يتحدث عن بدهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة : يقول سبحانه :

﴿ وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَ اللَّهُ ﴾

إيهم يقولون : إن الخالق هو الله ، مع أنهم مشركون أو مشركون بوجه من لوجه . في إيمانهم بالله ، تعالى ، وما برلت الأدبيات قط لإثبات وجود الله ، وإنما برلت لتصحيح الاعتماد في الله أو لتصحيح طريق التوحيد .

أما الآيات الكثيرة . التي يظن بعض الناس أنها برلت لإثبات الوجود فليست من ذلك في قليل ولا في كثير ، إنها تبين عظمة الله وحلاله وكبريائه وهيمته الكاملة على العالم ، ما عظم من أمره ودق منه . لا تفوت هيئته صغيرة ولا كبيرة ، ولا يخرج عن سيطانه ما دق وما حل وقد أنت على هذا الوضع لتفود الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلاماً كاملاً

بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه ، ولا يأتي ما يأتي أو يدع ما يدع إلا في سبيله ، تعالى .

ومضى القرن الأول على ذلك ومضى القرن الثاني أو أكثره على المفطرة ثم كانت الفلسفة اليونانية

والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية . لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي ، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة . أي في عالم العقيدة . إنما هي فكرة وثنية ، أي أنها فكرة لا حق لها في الوجود ، لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله . يبينه على لسان رسده وكل تدخل من الإنسان في هذا العالم . إنما هو تدخل فيها ليس للإنسان التدخل فيه ، لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة ، لا يسعى أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلهي

إن الفلسفة اليونانية في عام العقيدة . فلسفة وثنية ، إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله ، ولا يحرحها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية ، إنها وثنية مابداً الذي قامت عليه . وهو مبدأ تأليه العقل البشري ، ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته

وهي حينما تثبت وجود الله عقلياً ليس في ذلك كبير فائدة . ولا يبرر ذلك وجودها ، ولا قيمة لما تثبته ، وإثباتها والعدم سواء . ذلك أن العقل الذي أثبت . هو العقل الذي يمكنه أن ينكر ، وهو العقل الذي ينكر بأفعول ولا لروم إذن للطبقة والتصديق الذي يحى به كل عقيدة فكرية في الشرق أو في الغرب نحاول فكراً ، أن تثبت وجود الله
إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشرى مهما كان هذا الفكر عقرياً .

ويجب على المزمع ألا يقيم وزناً - أى وزن - لأى تناح فكري في عالم ما وراء الطبيعة ، سواء خالف معتقده أو وافقه ، إيه في معتقده يدين الله وحده وكفى بالله مصدراً ، وكفى بالله هادياً ، وكفى بالله مرشداً ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن يعتصم بالله فهو حسبه إن كل ما عدا الهدى الإلهي في عالم الدين ، إنما هو وثنية وضلال .

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية ، وقد أردت أن تحد لحكاماً بعضهما من الخطأ فاخترت قسماً وثنياً آخر هو من المطلق ، فما أحدى ولا أعى ولا تقدم بالفكر الوثني في عالم الصواب شروى بغير

وبصيت هذه الفلسفة الوثنية - عبر القرون - على ما هي عليه ، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وحرافات .

ولقد كانت الأمة اليونانية . معلورة بعصر العذر ، فما كان في ربوعها دين منزى من لسماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة ، وما كان مثلها في ذلك إلا كمثل بعصر الجاهلي في الجزيرة العربية : فلجأت إلى العقل وهته ، وأخذت تثت به وتنكر ، فضلت وأضلت .

وحاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع ، فعملت فكرة الألوهية من تدبيس الوثنية ، وسمت بالله حل جلاله عن أن تصع وجوده موضع البحث ، ثم تسلت إليها - كمكروب خيث - وثنية اليونان ، فجعلت من وجود الله - مجرد وجود الله - باباً صحيحاً من أبواب البحث أو من أبواب اللاهوت الكنسي ، ونزلت بذلك الفكرة الدينية المقلسة عن الله إلى مستوى الحق الوثني المشرى !

وحاء الإسلام تطهيراً كاملاً للعقيدة وتركبة تامة للإيمان وأعس بمجرد

التسمية « الإسلام » الحرب على لشدة حل الشرى في دين الله ورسالته ما
 « الإسلام » إلا الاستسلام مطلق لله سبحانه وتعالى . به الاسترسال مع الله على
 ما يرضيه . وهل للإنسان غير هذا بآلية لله . وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً
 آخر ؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر سمي مؤمناً ؟ إن الاسترسال مع الله على
 ما يحب هو الإسلام . وهو دين . لا دين غيره . يقول الله تعالى .

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

وبكل من لا يسلم لله في وحيه اسسلاً مطلقاً فإنه ينبغي - في قليل
 أو في كثير حسب انحرافه - غير الإسلام ديناً .

ولقد كان الإسلام توحياً . وكان مادياً

ومن توجيه الإسلام . أن وجود الله لا ينبغي أن يوضع موضع البحث ،
 وكل من وضعه موضع البحث . فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى
 توجيه بشرى إنه ينبغي غير الإسلام موحياً ؟

وانتعى المسلمون الأول الإسلام توحياً . كما انتعوه مادياً . وسار الأمر
 على ذلك إلى أن تسللت العصمة اليونانية - كمكروب حيث إلى الحو
 الإسلامي سلب في عهد النامون ، وبولى كبر هذا التسلل النامون ، وشجعته على
 ذلك معتزلة عصره ، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النور ، وحق هم ذلك ،
 فما كان منطق الدين ولا منطق المفطرة السليمة تقضى بأن تكون راية العصمة ،
 راية الدين الإلهي مرهوعة تعرف على ربوع الأمة الإسلامية في محيط العقيدة ،
 سميل هذه الراية ، قليلاً أو كثيراً ، لرفع بحوارها رية أوسطو ، أو راية أيفور

ورفع المؤمنون راية الاحراف والوثنية بخوار راية الهدية المعصومة - وعارض المؤمنون واحتجوا وبيّنوا أن الوثنية - ولو وافقت الدين - فهي وثنية ولكن انبجح الوثني أخذ يفوى شيئاً فشيئاً ، ثم طُبِّح التصريح بالإقامة واستوطن - ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام لكبرى الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث - قد تلوثت بالوثنية ، كلاً ، وإعما الذي تنوث بالوثنية - وإلى حد كبير - إنما هو الهج والتزعة والاتجاه في البحث ومسيح البحث ، وليس ذلك بالأمر الهين ، أو الذي لا يؤبه له كلاً ، فذلك له خطورته في حجب قوة الإيمان وضعفه

وفرق بين أن تأخذ قضايا الوحي مأخذ المستسم ، المسترسل معها على ما تريد وأن تأخذها محكماً فيها عقلك مؤولاً لها أو عادلاً لها إلى اتجاه خاص ، أو شارحاً لها على نزعة معينة

وتعبير آخر : فرق بين أن تصدر عن الوحي متفهماً له بعقلك ، وبين أن تصدر عن عقلك متفهماً للوحي ولعن بعض الناس لا يرى فرقاً في التعبيرين ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى اوضاع الإنسان . فهو إما أن ينطق عن الوحي قائداً العقل إلى الخضوع له ، وإما أن ينطق عن العقل محاولاً تأويل الوحي بما يوافق النتائج التي وصل إليها العقل .

والأول طريق المؤمنين والمسلمين ، والثاني طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين والهج الوثني هج إثبات وجود الله عقياً هو الذي أتاح الانحراف الكامل ، أي إنكار وجود الله ، فما دام الهج الوثني قد أعطى حق الوجود ؛ فإن الوثنية - كمسيح - تأتي بالوثنية كتناحي .

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث - هو لدى هباً لنسوى المطر

المحرفة أن يلحدوا في دين الله . وأن يكفروا به سبحانه هذه نتيجة
ما النتيجة الثانية فإنها . صحف الإيمان ، إذا كنت تصح الوجود الإلهي
مجرد الوجود موضع بحث . فمعنى ذلك أنك وصعته موضع شك وريبة ولو لم
يكن كذلك لما وضع موضع البحث .

وإذا كان الوجود الإلهي - مجرد الوجود موضع شك وريبة فمما بقي من
أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة ؟ إن الإيمان في هذه الأوصاف الوثنية .
لا يتأتى له إلا أن يحو شيئاً فشيئاً حتى يصح كلاً إيمان .

وهذا هو ما حدث في الأمة الإسلامية لقد وصل إيمانها إلى درجة يشبه
أن يكون معدوماً . وما ذلك إلا لتعلل النهج الوثني في بحث قصايا الدين
ومبادئه فقد أصبحت قصايا الدين ، كل قصاياه ، موضع بحث وهل يتأتى أن
تبقى قصية من قصايا الدين في محال إيقير بعد أن وضع وجود الله - مجرد
وجوده سبحانه موضع البحث ؟ ستعصرك عليهم . وتوب إليك

ويعود فنقول . إن الدين في نفسه محموط بحفظ الله بكتابه العزيز

﴿ يَا نَحْنُ فَرَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

ولكن الذي شكومه إنما هو النهج أو المذهب ، أو البرعة ، أو الانجاء في
المبحث ، إن الذي شكر منه إنما هو :

مذهب البحث الوثني . وإذا شئت قلت . إنما هو مذهب البحث اليوناني .

سئل أحد العارفين عن الدليل على الله .

فقال : الله .

فقبل له . فما العقل ؟ فقال : العقل عاجز لا يدرك إلا على عاجز مثله .

أما للإمام الكبير العارف بالله أس عطاء الله السكندري الذي جمع بين

رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول :

« إلهي ، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفترق إليك ؟ أياكون حيزك
من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى عمت حتى تحتاج إلى
دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون لآثار هي التي توصل إليك »
« كيف يتصور أن يحجه شيء . وهو الذي أظهر كل شيء »
« كيف يتصور أن يحجه شيء . وهو الذي ظهر بكل شيء »
« كيف يتصور أن يحجه شيء . وهو الذي ظهر في كل شيء »
« كيف يتصور أن يحجه شيء . وهو المظاهر قبل وجود كل شيء »
« كيف يتصور أن يحجه شيء . وهو أظهر من كل شيء »
« كيف يتصور أن يحجه شيء . وهو أقرب إليك من كل شيء »
« كيف يتصور أن يحجه شيء . ولولاه ما كان وجود شيء »
« شأن من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف لحق لأصله ؛
فأنت الأمر من وجود أصله ، ولا استدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا
فمتى غاب حتى يستدل عليه ؟ ، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل
إليه ؟ »

٥

الأحزاب الدينية

في عصر الإسلام الأول كان كل شيء مصطعاً بالصيغة الدينية ، ويشق

عن جو مصطع بالصيغة العامة للنوالة صبعة الدين

ولا عرانة في هذه . فإن الإسلام ليس عقيدة قلبية محسوسة . ولكنه نظام يتضمن جميع قوانين المجتمع

إنه عقيدة وعبادة وأخلاق ، كما أنه تشرية ونظام للمجتمع ، ومبادئ من الاتجاه العام للدولة ، حيث يكون في إطار الوحي أمة مسلم نفسها لله سبحانه ، محكمة كتابه ، وسنة نبيه

من أجل ذلك قضا . « لأحزاب الدسة » ولم يقل . « لأحزاب السياسية » وما كان لكلمة السياسة . وجود بمصاهير الحالى في ذلك العصر هذه الأحزاب نشأت بشاة ميسرة تشبه أن تكون طبيعية لقد شأ عقب انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق لأعلى سؤل عادى بشاة في كل مجتمع

من الذى تولى الأمر بعد الرسول ﷺ ؟

إن الإسلام لا يعترف بطقية أساسها السب فقط ، واشرف في الإسلام والفصيلة إنما يتبعان التقوى .

وفي الإسلام مبادئ - أشرف ما تكون المبادئ - بالنسبة لذلك . ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٩) .

« إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة)

﴿ فلا أساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ (١٠)

« رب أشعث أعرج . لو أقسم على الله لأبره » (رواه أحمد ومسلم والحاكم

وغيرهم

وإن اخو الإسلامى كله يوحى بأن فصل الشخص لا يرجع إلى مال ،
ولا إلى جاه ، ولا إلى منصب ، ولا إلى نسب وإنما إلى صلته بالله
ومن أجل ذلك لم تتحه الحمهرة اعظمى من المسلمين إلى أسرة بدائها لتولى
الحكم .

إن الحكم فى الإسلام خلافة
والخلافة اتباع لرسول الله ﷺ .
بها خلافة له ، ومن أجل ذلك . كان الخليفة يتحرى ما كان يصعبه ﷺ
ويسير على نسقه
والأمر شورى .

﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ (١١) .

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (١٢)

وقد عرس رسول الله ﷺ مبادئ الشورى بسوكة فى عزوة بدر حينما
استشار المسلمين فى حرب المشركين ، وكانت نتيجة الشورى ترجيح فكرة
الحرب

وأشير على رسول الله ﷺ فى موضع بروله فى هذه العروة ، وأخذ بالمشورة
واستشار المسلمين فى موضوع الأسرى

واستشار المسلمين فى عزوة الأحزاب وانتهت المشورة بفتح الخندق
واستشار المسلمين فى أمور أخرى كثيرة .

ولما انتقل لرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى اجتمع الصحابة فى سقيفة

(١١) آل عمران ١٥٩

(١٢) الشورى ٣٨

بى سعادة ، وتشاوروا فى الشخصية المثلى لتولى الخلافة ، ونهى هم الرأى إلى
أبى بكر رضى الله عنه

ولقد كان أبو بكر رضوان الله عليه ، حديراً بها
ولقد قام رضوان الله عليه بها خير قيام

ورأى أبو بكر رضى الله عنه أنه خليفة رسول الله ﷺ . وقد اختارته الأمة
لمصلحتها الدينية والدنيوية ، وهذا معاه التفويض فى اختيار من يخلفه ، وتلك
وجهة نظر لا غبار عليها

إن المسلمين اختاروه خليفة أى ألفوا إليه قيادتهم ، واثقين به فى أمور
مصالحهم ، فاختار لهم وقد أسلموا إليه الأمر من بعده .

وتجرى هو الأمر ، واستشار واستحار ، ولم يأل جهداً فى الصيحة ، وختار
فى نهاية حياته وهو مقل على ربه اختار عمر رضى الله عنها
ولكن المعص من الصحابة لم يأخذوا بوجهة النظر هذه ، وأحد مطلقهم
وضعاً آخر .

إن الأقرب إلى رسول الله ﷺ أولى بحمل الرسالة إذ كان يصلح لها ، فإذا
لم يكن فى الأقربين من يصلح فيكون الخليفة فى من يسهم . وهكذا
إنما القربى والصلاحية ، ولا يخرج الأمر عن ذلك إلا إذا انعدمت
الصلاحية الحقة تماماً .

وكان هذا الصريق نتج من سيدنا على ، كرم الله وجهه . مثلاً كريماً لتولى
الخلافة

ولقد كان سيدنا على مثلاً كريماً للخلافة ، ومن الذى يعارض فى ذلك ؟

لقد كان مثلاً أعز في الصلاح والتقوى ، وفي الشهامة ولبطولة ، وفي العلم .

ولكن الأمور سارت على غير ما يجب هؤلاء .
إنها سارت على غير ما يأملون حينما اختير سيدنا عمر ، وسارت على غير ما يحسون حينما اختير سيدنا عثمان .

وكان هذا الفريق يقوى على مر الزمن ويكثر عدده ، خصوصاً في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه

وعثمان رضي الله عنه هو « ذو النورين » وهو الذي قال عنه رسول الله ﷺ :

« اللهم ارحم عن عثمان فإني عنه راض » رواه ابن هشام
وقال عنه ﷺ عندما وضع في حجر رسول الله ﷺ مبيعاً من المال هو من الكثرة بحيث أفاد المسلمون منه فائدة كبرى في حريمهم ، قال عنه .
« ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » رواه أحمد والترمذي

ثم هو من العشرة المشيرين بالحنّة
وانتهت حياة عثمان بهذه المناساة التي لا تحب الخوص فيها مراعاة لحرمة الصحابة ، ولكن الذي استطيع أن تؤكد أنه هو أن سيدنا علياً براء من دم عثمان ، وكذلك كبار صحابة رسول الله ﷺ
وتولى سيدنا علي الخلافة ، تولاهما عن طريق الشورى ، وكانت خلافته صحيحة .

ولكن حدث ما حدث من المناساة الكبرى ، والحرب التي سقط فيها تسعون ألفاً من فرسان الصدر الأول للإسلام .

وتولى معاوية الحكم ، وتعبرت صورة الحكم ، فبعد أن كان جلافة أصبح
مكاً عسوداً

وبعد أن كان ترسماً دقيقاً لخطوات رسول الله ﷺ أصبحت شخصية
الحاكم لها دخلها في الأمر

ومنذ أن حدثت هذه الأحداث وجد في الأمة أحزاب .

حزب العلويين أو الشيعة .

حزب الخوارج .

وحزب الأمويين

وحزب المرحنة

وأصبح الرأى برأى يدور حول أشخاص ، ومن أجل أشخاص ، وأصبح
في الأمة أحزاب تدين بالولاء لأشخاص

والإسلام لا يعترف بأشخاص ، إنما يعترف بمبادئ وأخلاق . وصفات
عليها . وشعاره .

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

إن للإسلام يعترف بأسياء ورسول دوى عصمة أما غيرهم من البشر
فلا عصمة لهم في نظر الإسلام

إن الإسلام يهتم بالمبادئ والمثل العليا والقيم الكريمة ، ومكارم الأخلاق .
أما الأشخاص فلا يتأني أن تكون سباً في انتمية بين الأمة

ويجب على المسلمين جميعاً أن يعلموا حق العلم أن الإسلام ليس من عقائده
ما يتصل بالشخصيات ، لهم إلا الرسول ﷺ

فإذا أخرجنا الشخصيات من محيطها الاجتماعي فإن كل الأحزاب التي تقوم

على الشخصيات إيماناً بها أو معارضة لها تسقط من نفسها
وما من شك في أن استطلاعات تفرض التقدير على المجتمع ، وهذا أمر حرجي
عليه العرف . وتناسفت العواطف مع العرف . وشعور الإنسان المترن يسير مع
العرف ومع لعواطف .

إن الإنسانية تحترم البطولات التي تقدمها أفعال الخير . سواء أكانت
بطولات عنمية أم بطولات أخلاقية تهدي إلى الرشيد ، وتدعو إلى سبيل الله .
ولكن إنسان مطلق الحرية في أن يقدر فلاناً أو أن يفصله عن فلان . أما أن
تدخل الأشخاص - غير الأنبياء والرسل - في عقائد فإن ذلك الأمر بعيد عن
الحزب الإسلامي الذي من شعاراته قوله تعالى :

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾

وأول قواعد التقريب أب نسقط من عقائدنا ما ينصل بالأشخاص . وإن أن
يحترم منهم من نشاء ، وأن نصرف النظر عن من نشاء
ولكن ذلك وحده غير كاف في السير بالفرق إلى الوحدة . وإذا كان ذلك
يلغى الأحزاب الدينية فإنه لا يقصى على الفرق الدينية

٦

الفرق الدينية

إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز عن لقرآن الكريم .
﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر
متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء

تأويله وما يعم تأويله لا الله والراسخون في العلم يقولون أماناً به كل من عند ربنا
وما يذكر إلا أولو الألباب ﴿١٣﴾

أما الآيات المحكمة فإنها سهنة . مبسر فهمها .

وأما الآيات لمتشابهات فإنها الآيات التي تنصل بالعيب .

ولقد مدح الله سبحانه في أوائل كتاب المؤمنين بالعيب فقال .

﴿م ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب
ويقيمون الصلاة وما رزقهم ينفقون والذين يؤمنون بما نزل إليهم وما أنزل
من قبلك وبالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
المفلحون﴾ (١٤)

وإذا سألت عن المتشابهات فإنها - إذن - الذات الإلهية من حيث هي
عيب . وأسرار الذات الإلهية من حيث هي قضاء وقدر ، وصفات الله من
حيث صلتها بالذات العلية .

ومها حنف علماء الكلام وعلماء التفسير في التشبه ما هو ؟ فإنه لا يتأتى
الاختلاف في أن ما هي رسول الله ﷺ ، عن الحث فيه ، هو من
المتشابه .

ولقد هي رسول الله ﷺ كثيراً عن الحث في القضاء والقدر ، وصلة
ذلك باختيار الإنسان أو عدم اختياره

إن الحث في مسألة الخير ولاختيار والقضاء والقدر . يثير كثيراً من
العقول .

(١٣) آل عمران . ٧

(١٤) سورة - ١ - ٥

أهـى مقادير تحرى فى أعنها ، والإسان فى محطها كالرشة فى مهـ
الرباح ٢ ، .

أم أن لإسان له إرادته وحرية واختباره ٢ ، .
إنه البحث الخالد الذى أثار وما زال يثير جدلاً حاداً بين المتكلمين ، وبين
اللاسعة ، وهو بحث يقسم الباحثين منذ المحطات الأولى إلى فريقين .
الفريق الذى يقول بالحبر ،

والفريق الذى يقول بالاختيار
ولقد فرق هذا البحث بين علماء اليهود منذ أن شأت اليهودية ، وما زال
إلى الآن يفرق بينهم فى رأى .

وفرق بين اللاسعة منذ شأة اللسعة فى اليونان القديمة
وفرق بين النصارى وما زال يفرق بينهم فى رأى
وتكم المسلمون الأوائل منذ العهد المدى ، وكان الرسول ﷺ ينأهم هياً
حاسماً عن البحث فى هذا الموضوع . وكان من أوامره ﷺ .
« إءء ذكر القدر فأمسكوا » رواه الطرافى واس حدس .

وكان رسول الله ﷺ يبدء ويهدء ويوعء كل من بشر هذا الموضوع ،
وله ﷺ أحاءىء كثر فى ذلك .

ولكن كثيراً من الناس لا يستجىون لءاء الهداية ، وتعءبهم نزعاءهم ، أو
رعاءهم ، على أنصهم هسرىون فى طرق من لىء ، نأوا عن السرىة
ولم بأء هؤلاء عضة وعبرة من نأاء هذا البحث عند اليهود وعند
النصارى ، تلك النأاء التى كانت الفرة المستمرة على مر القرون ، وعدم
الوصول إلى حل للمشكلة .

وسر بعض المسلمين في الطريق الذي سار فيه من قسهم ، واعترقوا كما اعترق من قبلهم ، وبشأ بسبب ذلك فرق تنازعت وتشاحنت
 إن مسألة الجبر والاختيار مسألة عصبية على الحق ، أية على الانقياد .
 بها كذلك شرقاً ، وهي كذلك غرباً ، وهي كذلك قديماً ، وهي كذلك حديثاً ، ولا مفر لعقل من أن يقول في ذلك مع لراسحين في العلم
 ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾

ونأمل معي سؤالين ، سأطرحها علان من كبار العلماء كل لصاحبه
 أقول إن الله يحب أن يعصى ؟ « مذهب الجبر »
 أقول إن الله يعصى رعباً عنه ؟ « مذهب الاختيار »
 والله سبحانه وتعالى لا يحب أن يعصى . وهو سبحانه لا يعصى بالرغم عنه
 ماذا إذن ؟

﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾
 ويحب إذن - أن يسقط البحث في الجبر والاختيار ، وذلك من أسرار
 الله سبحانه ، فإذا سقط البحث في الحر والاختيار سقط جانب كبير من عوامل
 التفرقة بين المسلمين .

٧

البحث في الذات والصفات

إن كنه ذات ما - أيًا كانت هذه الذات - لم يصل بعد البحث إلى بيانه ،
 ورسول الله ﷺ يقول .

« تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في دته فهلكوا » رواه أبو الشيخ ورواه

الطرائق في الأوسط واس عدى واليه في الشعب
والله سبحانه وتعالى يقول .

﴿سبحن ربك رب العزة عما يصفون﴾^(١٥)
ويقول

﴿ليس كمثله شيء﴾^(١٦)

ولقد ذكر القرآن الكريم سبحانه وتعالى صفات تشترك في لاسم مع صفات
الإبسان

لقد وصفه سبحانه بالعلم والإرادة والقدرة .
وقال سبحانه :

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما
يسكت على نفسه ومن أوفى مما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجراً عظيماً﴾^(١٧)
وقال .

﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾^(١٨)
هذه الصفات من إرادة وقدرة . . ما صلها بالذات ؟
أهي هي ؟ أهي غيرها ؟

ونحن في ذلك المتكلمون والفلاسفة واحملوا ، وكان لا مفر من
الاحتلاف . لأن ذلك عيب ، ولعيب يثير الاحتلاف دائماً . . وكان على
المسلمين أن يتفكروا في آلاء الله . وفي التفكير في آلاء الله استشاره لشكر
والتقوى واخشية

(١٧) المصحح ١٠٠

(١٨) الرحمن . ٢٦ ، ٢٧

(١٥) الصافات ١٨٠

(١٦) الشورى . ١١

ولكن المتكلمين والفلاسفة تعدوا حدودهم فبحثوا في صلة لدات هذه الصفات فاحتلوا

وهذه الصفات من يد ، ومن وجه ، ماذا تعنى ؟ أنعى يداً ووجهاً أم قدرة وداناً ؟ . أناخذها على طاهرها أم تؤوما ؟ .

وبحث متكلمون والفلاسفة في ذلك ، وختلفوا ، وجروا وراءهم في الاختلاف الكثيرين . وتعدوا حدودهم . .

ولم يكن ذلك مطلوباً في العقيدة . ولن ينأى أن يقول فائل إن تحديد معنى . ﴿ الرحمن على لعرش استوى ﴾ في الاستطاعة الإنسانية . أو هو مطلوب في العقيدة .

وما من شك في أن أسلاماً قد وقفوا من ذلك موقف المستنصر المستنير .
إنهم كانوا يقولون في كل ذلك .

آما بذلك على مراد ربنا

أويقولون .

﴿ آما به كن من عند ربنا ﴾ .

وكل ذلك من ملتشاه ، بل في مركز الدائرة من المتشاه .

﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيشعرون ما تشاه منه استغاء المشقة وبتغاء تأويله

وما يعلم تأويله إلا الله ﴾

وإدا رأيت الباحث المحادل الذي بحرى وراء تحديد الغيب فاعلم أنه من

الذين في قلوبهم زيغ

وإدا سقط البحث في ذلك وقلنا . آما به على مراد ربنا ، سلمنا ،

وسلمت عقائدينا ، واسترحنا ، وأرحنا الأمة من اتباع ما تشاه منه

وتأمل معي قول رسول الله ﷺ .

« إن المقسطين عند الله يوم القيامة عن يمين الرحمن وكنتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » (١٩)

وتأمل .

﴿ وهو معكم أين ما كنتم ﴾ (٢٠)

وتأمل :

﴿ ما يكون من نحوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم يستهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ (٢١)

﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ (٢٢)

وهو سبحانه ليس كمثله شيء .

إبنا إذا أسقطنا البحث في التشابه ، انهار صرح الاختلاف الذي يعمل كل أعداء الإسلام على أن يستمر وأن يتسع

وإذا ما سرنا دائماً في هذا التيار فإن أعين أعداء الإسلام تفر ، ويصرحون

لتحقيق أمانيتهم في إثارة انزعج والتفرقة بين المسلمين

ولكن الله غالب على أمره ، وسعتم به سبحانه

(١٩) رواه أحمد وأحمد ومسلم والشافعي

(٢٠) الحسبي : ٤

(٢١) المجادلة : ٧

(٢٢) الأنعام : ٣

﴿ومر يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾
 سعتصم به فلا يحمل الأشخاص يفرقون بيننا . وسعتصم به فلا نبحث في
 المنشأه وبذلك رضى الله سبحانه ورسوله ﷺ

٨

وكلتا يديه . . يمين

يقول رسول الله ﷺ . فيما رواه أحمد ومسلم وأبي داود عن عبد الله
 بن عمرو - رضى الله عنهما :

« إن المصطفى عبد الله يوم القيامة على ما بر من نور عن يمين الرحمن .
 وكلتا يديه يمين . اليدين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »

وكيف نتصور : وكلتا يديه يمين ؟

إن لأوضاع العادية تريبا دائما أن إحدى اليدين يمين والأخرى يسار .
 ونحن بحسب المحدود نتصور دائما الأمر كذلك ، ولكن الحديث الشريف يشق
 عن قاعدة عامة تتمثل في قوله تعالى .

﴿ليس كمثله شيء﴾

وتتمثل في قوله تعالى .

﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾

والواقع أن الذات الإلهية أعز وأمع من أن يصل إلى وصفها العقل البشرى

كما يسه وهو آريته

إن الذات الإلهية عيب ، والمحب يؤمن به الإنسان دون تصور له ، اللهم
 إلا إذا شبه بشيء ، رآه أو سمعه : أحس به على وجه العموم .

• والإيمان هكذا خلق . إنه لا يمكنه أن يتصور إلا ما شاهده أو أحسه .
بأحدى حواسه .

والله سبحانه غيب . ولقد قال الإمام ابن عبد البر كلمة في غاية العمق
بأن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك بقياس أو بعام بظر ؟
إن الله لا يدرك من حيث ذاته بقياس ، ولا يدرك من حيث الذات بعام
لظر . إنه .

﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .

هذه النظرة المؤسسة على القرآن والسنة هي النظرة التي وصل إليها لفلاسفة
المؤمنون .

ولقد وصل الأمر ببعض الفلاسفة المؤلّفين بأنهم لا يتحدثون عن الله
إلا بالسلب ، فهم إذا أحبوا أن يقوبوا . الواحد يقولون « اللا اثنين » مثلاً ،
أو تعبيراً سلبياً يؤدي معنى الواحد .

وذلك أن كل وصف إنما هو تحديد ، وكل تحديد هو تقييد ، وكل تحديد
هو حصر ، والله سبحانه لا حاصر له .

ومن هنا كانت حتمية الالتزام بما ورد في النص الإلهي وهذا الالتزام
لا يفسر ولا يؤول ، ولا يترجم إلى تصور معين . وإنما يقاب . أما أنه على مرد
الله سبحانه ، فإذا قال الله سبحانه :

﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾

فإن الموقف الحتمي أن يقول .

أما أنه على مراد الله . ولا شيء غير ذلك ، وكل تفسير ، وكل تأويل . هو
انحراف عن الصراط المستقيم

وفي مقابلة الصوفية حينما ترد في نص ، نقول . آما به على مراد الله . وفي هذه الحالة لا يتأتى أن يتساءل إنسان عن الجهة التي تقتضيها الصوفية ، وذلك أنه مادام الأمر : آما به على مراد الله . لا يتأتى هذا السؤال .

والاستواء : آما به على مراد الله .

و ﴿ هَبْنِكَ نَاعِماً ﴾ آما به على مراد الله ولقد عمر الله سبحانه ناعيننا ولم يقل بعيننا ولا بعينينا

وهكذا في كل ما يرد عن الذات الإلهية

وما من شك في أن الحديث في الذات الإلهية يتم هو من التشابه ، ومنها قال مفسرون في تفسير التشابه ، فإنه مما لا شك فيه أن الحديث في الذات الإلهية ، إنما هو من التشابه ، بل هو مركز التشابه ، ونحن نعلم الموقف القرآني من التشابه ، يقول سبحانه عن لقمان الكريم :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آما به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (٢٣)

لقد نهينا في قوة عن البحث والجدل في التشابه

فإدام بحث ولم نحادل واتبعنا التوجيه القرآني ، فإنه لا يكون ساء أعي

أمة الإسلام مفرقة مصدرها التشابه ، الاستواء ، الصوفية ، اليد إلخ

﴿ والراسخون في العلم يقولون آما به كل من عند ربنا ﴾

وشيء آخر ، لا ندري كيف حرروا الباحثون من أهل السنة ومن المعتزلة على

لبحث فيه ؟ وذلك هو موضوع ، ابدات والصفات
 لقد وصل الأمر بالبحثين في تطاولهم وحرمانهم وكبرياتهم أن بحثوا في .
 هل الذات الإلهية والصفات الإلهية شيء واحد أو أن الذات غير الصفات ؟
 هل هي هي ، أو هي غيرها ، أو لا هي هي ولا هي غيرها ؟
 إن الإنسان حينما يكون الأمر متصلاً بالله ليس له إلا الانكسار والخشية ،
 والخضوع والتضرع إلى الله سبحانه في أن يهبه انتواضع ، وأن يرفقه الرعية إليه ،
 والرحمة منه . وأن يقول مع الشاعر الرقيق . إسماعيل صبرى .
 يارب أهلى بمصلك واكفى شطط العقول وفتنة الأفكار
 أما أن يصل الأمر إلى هذا الحد من الطاول على المحال الأقدس ، فإن
 ذلك لا يكون الموقف منه إلا الموقف لدى التزمه لأئمة . مالك والشافعي
 وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وأهل الحديث . المحرم
 لقد حرم هؤلاء الأئمة الأفاضل الحديث في ذلك تحريماً مطلقاً ، وكانوا على
 حق رضى الله عنهم
 لقد كانوا متنسقين مع القرآن والسنة ، ومع العقل والمنطق ، ومن يحب
 عينا وجوباً مطلقاً أن يسير في ذلك على هدى من القرآن والسنة ، وعلى سنن
 أئمتنا رضى الله عنهم
 وبعد ، إذا فعلنا ذلك أما من لزل ، وأدينا لله حقه من القداسة ، وأزلنا
 الكثير من الخلاف فيما بيننا ، وهذا هدفنا من المقال .
 ورجو الله أن يهدى له وأن يهدى به . إنه سميع قريب مجيب .

المذاهب الفقهية

لقد طبق رسول الله ﷺ الإسلام كما أحبه الله سبحانه وتعالى ، طبقه في
محلف موافقه ، طبقه بكلامه ، وطبقه بعمله ، وطبقه بمشاعره
وكان الصحابة رضوان الله عليهم ، يسرون حسنا يرسم ، ويتخلون
قدوة ، ويعملون كما يعمل ، وبذلك توارثت سنته ﷺ العمية ، وكانوا رضى
الله عنهم يشرحون هذه السنة وكانوا يروون ما يحدث به ﷺ في موافقه
المسوعة

ولقد حفظ بعض الصحابة ما لم يحفظه الآخرون ، ثم تفرقوا في البلاد في
الأمة الإسلامية ، وحفظت الأمة الإسلامية في مختلف البلاد عن هؤلاء
الصحابة الكثير ، وأحدوا يروون ما حفظوا وشأ قوم اتجهوا إلى جمع هذه
الأحاديث في صحاح وفي مسابيد ، وتحروا فيها الصدق ، نافع عنها كل
ما يمكن أن يناله الشك ، وقاموا في سبيل ذلك كما لم يصل إلى مثله المؤرخون
الحديثون من أساليب النقد ، ونجى الصحة

وكان رسول الله ﷺ له أوصاع تسير على نسق واحد في بعض المسائل
وتختلف في بعضها الآخر

به ﷺ كان يلتزم سلوكاً واحداً فيما هو فرض ، كالقراءة والركوع والسجود
والجلوس للشهد في الصلاة ، وكصيام شهر رمضان . والإمسك الكامل فيه
عن الطعام والشراب . . وهكذا

أما فيما يتعلق بالسؤال فإن رسول الله ﷺ ما كان يلتزم بصورة حتمية سلوكاً واحداً ، وإنما كان يأتي في بعض الأحيان ما لم يأتيه في أحيان أخرى .
ومن أمثلة ذلك ما كان يقوله ﷺ بعد تكبيرة الإحرام قبل قراءة الفاتحة وما كان يقوله ﷺ من دعاء في سجوده

وهل كان ﷺ في وقوفه بين يدي الله للصلاة يرحي ذراعيه أو يقصصها واضعاً اليمنى على اليسرى . . وهكذا .

ومثل هذه الأمور تحدث في أعمال العبادة ، كما تحدث في أسبغ والربا والإجارة وغيرها من أعمال التعامل بين الناس

ومذاهب الفقهاء تدور في هذا الملتك . إنه لا اختلاف بينهم في الركوع والسجود مثلاً ، ولكن الاختلاف بينهم في غير الفروض الواحدة الأداء ولكن هذه الأمور الهبة التي ليست بفروض ولا واجبات قد استغلتها جهات يسرها الفرقة بين المسلمين وجهات أخرى مهمتها الفرقة بين المسلمين ، حتى تصرفهم الفرقة عن الأحذ في مهام الحياة الكبرى ، وحتى تصعقهم هذه الفرقة فتصرفهم عن الإصلاح الحقيقي للمجتمع ولقد اخترع لهم أعداء الإسلام مسائل للاختلاف .

فمسألة « السدر والقبص » : « ولسدر » . هو رجاء اليدين في الصلاة ، « وانصب » هو وضع اليد اليمنى على اليسرى حينما يكون الإنسان واقفاً بين يدي الله

لقد اختلف فيها بعض العلماء في بعض الأقطار إلى درجة حادة . ويعتني موقف عالم مستير وقف في حلة حند فيها النقاش حدة سيئة فقام .
يا عظماء الإسلام ، أسألكم بالله . إذا وقف الإنسان في الصلاة ومد يديه

تماماً أمامه ، هل تفسد صلاته ؟

قالوا : لا .

فقال فإذا رفع يديه تماماً إلى أعلى ، هل تفسد صلاته ؟

فقالوا : لا .

وأحد يسألهم : فإذا أرحاها ؟ فإذا صمها إلى بعضها ؟

وهكذا أخذ يسألهم عن الأوصاف المختلفة لليدين ويقولون : إنها لا تفسد

الصلاة .

فذل هم في النهاية علام اختلافكم يا علماء لإسلام . علام شقاقكم

ونراكم واختلافكم ؟ إنها فتنة ، فحسروا الإسلام عي ، وحسبوا المجتمع شرها

وهذا الجميع ، وعرفوا أن حديثهم في الخلاف إنما تقوم على غير أساس

صحيح .

وعلى كل حال ، فإن منشأ الاختلاف بين الفقهاء هو استناد بعضهم إلى

ما روته الأحاديث من حالات رسول الله ﷺ من أمر الس ، واستناد البعض

الآخر إلى ما روته الأحاديث من حالات أخرى :

وكلهم من رسول الله ملتزم عرفاً من اسحر أو دشفاً من الدم

وكل مذهب الفقه إنما هي آراء في مدرسة واحدة هي المدرسة الإسلامية ،

أو هي مدرسة رسول الله ﷺ .

بيد أن ضيق الأفق عند بعض المتأخرين هو الذي جعلهم يقيمون من هذه

الآراء « مذاهب » منفصلة ، منفصلة الأنواع ، يتنصر كل منهم لمذهبه

ويوشك هذا الامتحان أن يزول الآن في واقع المسلمين ، وليس له على كل

حال الحدة التي كانت له في الماضي .

وإذا كانت المذاهب آراء مجتهدين في مدرسة رسول الله ﷺ ، وهذا يشبه أن يكون بلهياً ، فإن لدى مازال غامضاً نوعاً ما في دهاء بعض الناس إنما هو أمر : « الاجتهاد »

ولقد حاول البعض أن يشيع بين الناس أن باب الاجتهاد قد أعلق ، وأن المجتهدين هم هؤلاء الذين تنغوا في الماضي من أمثال الإمام مالك والإمام الشافعي رضي الله عنهم .

وأخذ آخرون يحادلونهم في ذلك ، يرون أن باب الاجتهاد مازال مفتوحاً ، ولكمهم يتحدثون عن الاجتهاد وكأنه ميسر لكل من يريد والواقع أنه لا يتأتى لشخص مستبدى بصيرة مصيئة أن يقول إن فصل الله قد اقتصر على عدد محدود من الناس ، هم المجتهدون السابقون ، وذلك أنه من البديهي أن كل من تتوافر فيه شروط الاجتهاد يمكن أن يكون مجتهداً أما شروط الاجتهاد فهي :

١ - معرفة متمكنة لغة العربية ، ولقد كان الإمام مالك رضي الله عنه ، وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وكان غيرهما من المجتهدين من فحول اللغة العربية الأعداء

٢ - حفظ القرآن الكريم حفظاً مضمناً . وفهمه فهماً لا يقل عن فهم كبار المفسرين ، ويتضمن ذلك معرفة أسباب النزول في الآيات التي كان لها أسباب نزول . وذلك أنه وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإن معرفة أسباب النزول تساعد على فهم الحق الذي نزلت فيه الآية ، كما تساعد على التعمق في فهمها .

٣ - معرفة الأحاديث معرفة لا تنقل عن معرفة المحدثين ، وخصوصاً

الأحاديث التي تصل بالأحكام . وذلك أن الأحاديث الخاصة بالأحكام تفسر
الكثير بما لا تفصله بعض الآيات القرآنية .

٤ - معرفة السنة العملية برسول الله ﷺ ، والسنة العملية متواترة لأن
الدين لازموا رسول الله ﷺ في مكة ، ثم الذين لازموه في المدينة كانوا كثرة
كثيرة ولقد شاهدوا ما فعله رسول الله ﷺ ونابعوه عملياً فيما قام به ، ونقلوا
ذلك لمن شاهدتهم من بعده ، وهكذا .

٥ - معرفة سيرة رسول الله ﷺ في صراحة واضحة
وهذه الأمور التي ذكرناها يفرنا عليها كل من عده صورة للاجتهاد
ما هو ؟ وكيف يكون ؟

وهي وإن كانت متعددة فإن بعضها يدخل في بعض ، وبعضها يفسر
ببعض ، وبعضها أمسات وبعضها نتائج وكل منها يساعد على فهم الآخر .
هي - إذن - ميسورة ؛ ولكن لابد من إتقانها .
والأمر الهام الذي يجب توقيف الله تعالى أن نأخذ في الحديث فيه الآن هو .
هدف الاجتهاد .

يظن بعض الناس أن هدف الاجتهاد إنما هو تفسير الأمور . أو اختراع
رأى ، أو ابتداع فكرة ، أو إبداء رأى شخصي
لو كان الأمر كذلك لما كان هناك من حاجة إلى شروط ، أو كد في
التحصيل ، أو جهد في المعرفة - كلاً ، إن الاجتهاد ليس كذلك
إن رسول الله ﷺ يقول فيما رواه لشيخان .

« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ . « من دعا إلى

هـى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » رواه مسلم

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن العدوى قال . قال رسول الله ﷺ .
« يحصل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ،
وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » رواه البيهقى

وعن عبد الله بن عمرو قال . قال رسول الله ﷺ :
« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما حئت به » رواه فى « شرح
السنة » وقام السورى فى « ربيعته » هذا حديث صحيح رواه فى « كتاب
الحججه » بإسناد صحيح

إن هدف الاجتهاد أمران .

الأمر الأول . هو الاجتهاد فى المسائل التى كانت فى عهد الرسول ﷺ .
للوصول إلى ما كان عليه النبي ﷺ فى هذه المسألة أو تلك . إنه مذهب الجهد
للوصول إلى حكم يقينى فى مسألة أو مسائل كانت على عهد رسول ﷺ ،
وهذا لا يتصل من قرب أو من بعد بالاشدع أو الاضراء أو الرأى اشخصى
وأما الأمر الثانى : فهو الاجتهاد فى مسألة حدثت بعد عهد النبي ﷺ من

أجل ربطها بقاعدة عامة من قواعد الدين الإسلامى محملة أو مخمرة
إن القرآن الكريم ، وإن السنة النبوية الشريفة ، فهما قواعد عامة يدخل
فيها ما لا يخص من الجزئيات ، ومهمة المجتهد هى أن يربط المسألة الحديثة
بالقواعد العامة

وهو فى هذا لا حرية له ، إنه مفيد بالقياس وبالقواعد العامة ، ليس له فى

هذا حرية الإطلاق كيهما يريد : كلاً ، إنه في كل ظروفه متبع لا مستدع ،
ورسول الله ﷺ يقول في نوعي الاجتهاد :

« اتبعوا ، ولا تبندعوا ، فقد كفيتم »

والذي نريد أن نتهي إليه هو .

١ . المذاهب الفقهية آراء في مدرسة الرسول ﷺ ، وهي بهذا الاعتبار

لا تفرق ولا تفصل بين فرد وفرد . ولا بين جماعة وجماعة

٢ . باب الاجتهاد مفتوح إذا توافرت الشروط . والسؤال ليست مسألة

جدل في هذا ، وإنما هي مسألة اجتهاد في أن تتوافر الشروط

٣ . الاجتهاد لا استداع فيه ، وهو ليس رأياً شخصياً

وبعد كل ذلك نقول :

إنما قبل هذا الحديث وبعده نشترط في المجتهد أن يكون متحلياً بفصيلة

التقوى . .

إن قم الفقهاء جميعاً من الأولياء ، والاجتهاد الصادق عند المجتهدين القمم

هو فتح من الله ، ونور من لده سبحانه .

ونحن نرور الإمام الشافعي مؤميين بأنه من أولياء الله ، وأهل العراق يرورون

الإمام أبا حنيفة مؤميين أنه من الأولياء . وهكذا .

ولن يأتي فتح الله إلا لمن تحلى بالتقوى ، والله سبحانه وتعالى يقول .

﴿ ومن يعتم الله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾

الفصل الثالث

الإمام الغزالي والمتكلمون

١

يحتل البحث في نظرية المعرفة مكاناً كبيراً في العصر الحاضر ، حتى لقد رأى بعض مفكرين أن نظرية المعرفة إنما هي نصف الفلسفة .
وابه لمن الطبيعي أن يبحث الإنسان في الوسائل التي تؤدي به إلى هدف الذي يريده ، ومن هنا كانت أهمية نظرية المعرفة في الفلسفة الحديثة .
بيد أن البحث في هذا الجانب أصبح في العصر الحاضر كأنه هدف لا وسيلة فأصبحت نظرية المعرفة تدرس لنفسها ، كأنها حرة من الفلسفة .
ومن الواضح أنه من الانحراف عن الطريق الفلسفي المستقيم أن يوحد إنسان باستمرار حياته يبحث في نظرية المعرفة من جميع أطرافها ويقتصر على ذلك فلا يتخطاه إلى المعرفة نفسها ، ومع ذلك يطلق عليه الباحثون لقب « فيلسوف » .

ومن أجل ذلك أخذ بعض المفكرين يهكّون على بعض دارسي الفلسفة في العصر الحديث . لأنهم يشغلون أنفسهم بالوسيلة عن النعاية ، أي يشغلون أنفسهم بنظرية المعرفة ولا يلقون بأنفسهم في حصم المعرفة نفسها يرتشفون منه ويهلون . .

وشعلت نظرية المعرفة الإمام انغراسي ، لقد فكر في وسائل المعرفة ودرسها ،
واعتقدتها ، وسواء كانت الوسيلة - هي الحس - وهي العقل ؟ ، فإنه قد درك كلاً
حقاً تقديره ووضعها في مكانه مناسب له . وستحدث عن ذلك حيناً نتحدث
عن موقفه من الفلسفة .

وشغل نفسه بنظرية المعرفة من حيث الاتجاهات وانطرق والسبل التي سارت
فيها طوائف محقة من الباحثين فوصلوا إلى نتائج مختلفة تنفق أحياناً وتختلف
وتعارض في كثير من الأحيان

وبدأ بحثه في هذا الخائب يحصر الطالبين بلحق الناسكين سيبه سواء كانوا
سائرين على الطريق الصحيح أم منكبين سواء الصراط .

فوجدهم لا يعدون أربع فرق

١- المتكلمون : وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر .

٢- الناطية : وهم يرعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون

بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣- الفلاسفة وهم يرعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤- الصوفية . وهم يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة

والمكاشفة^(١) وهذا الخصر « للنسالكين سبل طلب الحق » أوسع مما تبحث فيه
الفلسفة الحديثة إذ الفلسفة الحديثة تهمل إهمالاً يكاد يكون تاماً طريقة

(١) امتد من الضلال

المتكلمين ، وتهمل أيضاً إهمالاً يكاد يكون تاماً هؤلاء الذين يرفعون أنهم
« أصحاب التعليم ومن المخصوصين بالاعتقاد من الإمام المعصوم »
ويبدأ الإمام العزالي ، بعد هذا الحصر ، بالبحث في عمق هذه الطرق
واستقصاء ما عندها متداً بعلم الكلام .

وعلم الكلام ، الذي كان على عهد الإمام العزالي ، هو علم الكلام الذي
يدرسه الآن ، فإذا تحدث الإمام العزالي عنه فليس ذلك الحديث عنصراً بالفترة
التي عاش فيها الإمام العزالي ، وإنما هو يوص إلى العصر الحاضر ، وإلى هذا
الصح من الدراسة الموحدة في كتب علم الكلام المتداولة الآن
وإذا تحدث عنه الإمام العزالي فإما يتحدث حديث الوثائق الخيرة ، فقد
حصص وطالع كتب المحققين فيه ووصف فيه ما أراد الله أن يصف ، ثم كان
في النهاية رأيه الشخصي .

وهذا الرأي الشخصي رأى حريء حاسم تنفق حقيقة مع الوضع الإسلامي
الصحيح ، ولكن الظروف أوجدت الإمام العزالي في بيئة كان بعلم الكلام
فيها على ما هو عليه . قداسة واحترامه ، فحاول الإمام العزالي أن يعبر رأيه
على أساليب مختلفة وعلى أنماط متعددة منها المخامل الرقيق الذي لا يرضى كل
الرصا ولكنه يتسامح في أسلوبه ويحاصر في تعبيره ويعطف ويشفق ، ومع ذلك
يسير في وضوح أن الوضع خطأ ، وفي أحيان أخرى تصيق نفسه بالوضع
الخاطئ فيعضب ويثور ويحسم الأمر في أسلوب قوي ، وفي حدة ، ما كان
الإنسان يتوقعها من صاحب « الاقتصاد في الاعتقاد » .

ومن أجل أن يكون رأى العزالي مقبلاً ، ومن أجل أن يأخذ رأيه المكانة
التي يريدونها والانبثاق الذي يطمح إليه أحد يستشهد بأراء أئمة السلف

في علم الكلام كالإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم
من السلف الصالح الذين تؤمن بسعة علمهم وبإخلاصهم وباتباعهم للسبح
الدينني الصحيح .

والآن تذكر رأيه في صورته الحاسمة . إنه يتحدث عن علم الكلام في كتابه
النيس « إحياء علوم الدين » فيقول . « وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف
الحقائق ومعرفة ما هي عليه ، وهيات ، وليس في الكلام وفاء لهذا
مطلب الشرف . ولعل التحسُّط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف
هذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما حطر بآلك أن اندس أعداء ما جهلوا .
فاسمع هذا ممن حرر الكلام ثم علاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التعلُّل فيه إلى منتهى
درجة المتكلمين . وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أحر تناسب نوع الكلام
وتحقق أن لطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود^(٢) » .
ويرى الإمام أن المتكلم لا يريد على العمى إلا في صحة الكلام ، ولأجله
سميت صناعته كلاماً .

أما إذا تساءلت عن إيمان المتكلمين فإن إيمانهم « ممزوج بسوء استدلال
ودرجته قريبة من درجة إيمان العوام^(٣) »
ويرى الإمام الغزالي أن « جميع أهل الحديث من السلف ذهبوا إلى
تحريم الكلام وإلى التحريم أيضاً » ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل
وسفيان » وسيأتي توصيح رأيهم

هذا الاتجاه الذي سار فيه الإمام الغزالي إنما هو اتجاه الصوفية على وجه

(٢) الإحياء ج ١

(٣) الإحياء ج ١

العموم وهو فيما يرى الرأي الصحيح الذي انتهى إليه الإمام العزالي بعد تجربة
محصنة وحبيرة واعية .

٣

نصوص

هذه النصوص مأخوذة في قسمها الأول من كتاب الإمام السيوطي « صون
اسطق والكلام عن فني المطلق والكلام » ، ونحن نتفق مع الإمام السيوطي
اتفاقاً كاملاً في وجهة نظره في هذا الكتاب .

والقسم الثاني من هذه النصوص مأخوذ من كتاب « إحياء علوم الدين »
لا على أنه رأي الإمام العزالي ، وإنما على أن الإمام لغزالي جامع مختلف الآراء
في موضوع علم الكلام ، فأخذنا منه وجهة نظر خاصة ، نأخذها على اعتبار أن
دور الإمام العزالي إنما هو دور المؤرخ الناقل ليس إلّا

القسم الأول .

قال صلى الله عليه وسلم : « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من
حذلهم حتى يأتي أمر الله » .

وأخرج الهروي عن معاوية أنه قام فقال : « أما بعد ، فإنه بلغني أن رجالاً
مكم يتحدثون بأحاديث ليست في كتب الله ولا تعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أولئك جهالكم » .

وأخرج الهروي عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا لم يعلم شيء لم يقل فيه برأيه ولم يتكلمه .

وأخرج الهروي عن سهل بن حنيف قال : يأبى الناس اتهموا رأيكم فلقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم أبي جندل ، ولو يستطيع أن يرد على رسول الله ﷺ أمره بردناه [لحدث أخرجه اسحاري] .

وأخرج الهروي عن عمر بن الخطاب قال : يأبى الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ ، رأيي اجتهداً ، والله ما آلوا عن الحق ، وذلك يوم أبي جندل .

وأخرج الهروي عن ابن عباس قال : إياكم والرأي فإن الله رد على الملائكة الرأي . قال إني أعلم ما لا تعلمون . وقال لسيه ﷺ ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ ، ولم يقل بما رأيت .

وقال شيع الإِسْلام إسماعيل الهروي . في باب ذم اتباع متشابه القرآن والحدال به .

عن عائشة قالت تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هو الذي أرسل عليك لكتاب ﴾ فقال : إذا رأيتم الدين يتبعون ما تشابهه ، فألك لدين سمي الله ، فاحذروهم .

وأخرج عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ فأما الدين في قلوبهم ربيح ﴾ ، قال : هم أصحاب الخصومات والمراء في دين الله .

وأخرج عن أبي ، قال : ما استأنا لك فاعمل به ، واتق به ، وما شئ عليك فأمن به وكله إلى عالمه .

وأخرج عن سعيد بن المسيب قال : قام عمر بن الخطاب في الناس فقال :

أبها الناس . لا إن أصحاب الرأي أعداء السنة أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها
وتعت مهم أن يعوها فعاندوا السن برأيهم فصلوا وأصرو كثيراً ، وألدى نفس
عمر يده ما قص الله بيه ، ولا دفع الوحى عنهم ، حتى أغناهم عن الرى ولو
كان الدين يؤخذ بالرأى ، لكان أسفل الحف حق بالمسح من ظاهره فأياكم
وأياهم ، ثم إياكم وأياهم .

وأخرج الهروى عن هشام بن عبد الملك أنه قال لسيه : إياكم وأصحاب
الكلام فإن أمرهم لا يؤول إلى الرشاد .

وأخرج الهروى عن مالك قال : إياكم والبدع . قيل : يا أبا عبد الله وما
لبدع ؟ قال : أهل البدع الدس يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعنه
وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون هم بإحسان .

وأخرج عن مالك قال : من طيب الدين بالكلام ترندق .

وأخرج عن عبد الرحمن بن مهدي قال : دحيت على مالك وعنده رجل
يسأله عن القرآن فقال : بعثت من أصحاب عمرو بن عبيد ، لعن الله عمراً فإنه
ابتدع هذه البدع من الكلام . ولو كان الكلام عدماً لتكلم فيه الصحابة
ولتتابعوا كما تكلموا في الأحكام والشرائع ، ولكنه باطل يدل على باطل

وعن يونس بن عبد الأعلى قال : سمعت الشافعى يقول : إذا سمعت الرجل
يقول . الاسم غير المسمى والشىء غير الشىء ، فاشهد عليه بالزندقة
وقيل لأبي حنيفة : ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض
والأحسام ؟ فقال : مقالات العلاسمة عليك بالأثر وطريقة السلف ، وإياك
وكل محدثة فإنها بدعة .

وعن الأوراعي قال : « عيبك بآثار السف وإياك وآراء الرجال ، وإن
رحمهم بالقول » .

وأخرج عن عبد الله بن داود الخريبي قال : سألت سفيان الثوري عن
الكلام ، فقال : دع الباطل أين أنت عن الحق ، اتع السنة ودع الباطل .
وأخرج عن أحمد بن مهدي قال : سألت أبا جعفر الصبي عن الخوض في
الكلام ، فقال : مثل الأوراعي عنه فقال : احتب علماً إذا بلغت فيه المنتهى
سبوك للريادة ، عيبك بالافتداء والتقليد .

وأخرج عن أبي يوسف لقاضي قال : من طلب الدين بالكلام تزندق .
وأخرج عن أبي يوسف : قال العلم بالخصومة والكلام جهل ، والجهل
بالخصومة والكلام علم .

وأخرج عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة : لعن الله عمرو بن عبدي ،
فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعيهم من الكلام ، قال : وكان
أبو حنيفة يحث على الفقه وينها عن الكلام .

وأخرج عن أبي الحسن عثمان بن سعيد الأنماطي ، قال : سمعت المزي
يقول كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدم انشافعي ، فيما قدم الشافعي أتيت
فسألته عن مسألة في الكلام ، فقال لي : تدري أين أنت ؟ قلت : نعم أنا في
مسجد الجمع بالمسطاط ، فقال لي : أنت في تاران ؟ قال أبو القاسم . وتاران
موضع في بحر الفلزم لا تكاد تسم منه صفيه . ثم ألقى علي مسألة من لغوه ،
فأحست فيه ، فدخل شيئاً أفسد جوابي ، فأحست بعد ذلك ، فدخل شيئاً أفسد
جوابي ، فجعلت كلما أحست شيئاً أفسده . ثم قال لي : هذا الفقه الذي فيه
لكتاب والسنة وأقاويل الناس يدخله مثل هذا ، فكيف الكلام في رب

العالمين ، الذي الرتل فيه كفر ، فتركت الكلام وأقلت عن لفقه
وأخرج عن طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل قال سمعت محمد بن داود
قال : لم يحفظ في دهر الشافعي كنه أنه تكلم في شيء من الأهواء ولا بسب
إليه ، ولا عرف به مع بعضه لأهل الكلام والبدع
وأخرج عن طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه ، قال كان
لشافعي إذا ثبت عنده الخبر قلده ، وخبر حصة كانت منه لم يكن يشتهي
الكلام إنما هم المقه .

وأخرج عن المزني أن رجلاً سأله عن شيء من كلام فقال : إلى أكره
هذا ، بل أمي عنه كما نهى عنه الشافعي
وأخرج من طريق أبي داود وأبي ثور قالا : سمعنا الشافعي يقول مام
أحد ارتدى بالكلام فأفلح .

وأخرج من طريق الحسين بن سماعيل للحامى قال : قال المزني : سألت
الشافعي عن مسألة من الكلام ، فقال سألني عن شيء إذا أخطأت فيه قلت
أخطأت ، ولا تسألني عن شيء إذا أخطأت قلت كفرت

وأخرج عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال قال لي الشافعي .
يا محمد إن سألت رجلاً عن شيء من الكلام فلا تحبه فإنه إن سألك عن دية ،
فقلت درهماً أو ديناراً ، قال لك أخطأت ، وإن سألك عن شيء من الكلام
فقلت قال لك كفرت

وأخرج عن الربيع بن سليمان سمعت الشافعي يقول المراء في الدين يقسى
لقب ويورث الصعائن .

وأخرج عن الربيع قال . قال لي الشافعي يا ربيع أقل مي ثلاثة أشياء ،

لا نخص في أصحاب رسول الله ﷺ فإن حصلت الي ﷺ يوم القيامة ،
ولا تشتعل بالكلام فإن قد اطلعت من أهل الكلام على التعطيل . ولا تشتعل
بأنحوم ، فإنه يجر إلى التعطيل

وأخرج عن محمد بن عبد العزيز لأشعري صاحب الشافعي قال : قال
الشافعي . مذهبي في أهل الكلام تقبيح رؤوسهم بالسباحة ونشر يدهم من
البلاد .

وأخرج عن الكروبيسي قال قال الشافعي حكى في أهل الكلام حكم
عمر في صبيغ .

وأخرج عن أبي ثور والكروبيسي والنزعمراني قالوا : سمعنا الشافعي يقول :
حكى في أهل الكلام أن يصربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في
العشائر والقبائل ويأدى عليهم هذا جزء من ترك الكتاب والسنة وقيل على
الكلام

عن أبي ثور قال : قلت للشافعي صعب في الكلام شيئا ، فقال : من أريد
بأنكلام لم يفلح .

وأخرج من طريق ابن حزيمة سمعت يونس بن عبد الأعلى قال : قال
الشافعي . لأن يبتلى الله امرء بما هي عنه بخلاف الشرك خير من أن يبتليه
بأنكلام .

وأخرج عن النزعمراني قال : كان الشافعي يعتم بعامة كبيرة كأنه أعرابي
ويده هراوة ، وكان أذرب الناس لساناً ، وكان إذا حيز في مجلسه بأنكلام
هي عنه ، وقال : لساناً بأصحب كلام .

وأخرج عن أحمد بن لورير العاصي قال قلت لأبي عمر الصري

انرجل يتعلم شيئاً من الكلام يرد به على أهل جهل ، فقال : الكلام كله جهل ، وإنك كلما كنت بالجهل ، علم كنت بالعلم أحسن
عن عثمان بن سعيد الدارمي قال . لا نكيف هذه الصفات ولا نكذب بها ولا نفسرها .

ولقد ذكر يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي أنه قال : ما من دسب يلتقي الله به عبد بعد اشرك بالله ، أعظم من أن يلقاه بهذا الكلام . قال . فقلت له . فإن صاحب البيت بن سعد كان يقول . لو رأيت رجلاً من أهل الكلام يمشي على الماء فلا تركز إليه . فقال الشافعي : لقد قصر . إن رأيته يمشي في الهواء فلا تركز إليه .

وقال يونس بن عبد الأعلى ، عن الشافعي . قال مذهب في أهل الكلام مذهب عمر في صبيح تقع رؤوسهم بالسياط ويسيروا من البلاد .
وأخرج عن جعفر الفرعاني قال : سمعت الجيد بن محمد يقول : أقل ما في لكلام سقوط هيئة الرب من القلب - وانقلب إذا عرى من هيئة بالله عرى من الإيمان .

« ثم هو رحمه الله قد بحث في جميع أهل الأديان ، فما حادهم إلا بما على عليهم من التنزيل ، وبو شاء كلمهم بالمقاييس ودقيق الكلام . ولو كان ذلك هدى كان أوى به وعليه أقوى فلم تقم عليهم الحجة إلا بالتنزيل ، وضرب عن حادهم بالناقض وعلم أن ذلك رضى ومحة لربه وترك الجدل والخصومات من لسة » .

« ما يؤمنني أن أقيم الحجة بعض التأويل أو بقياس أرى أنه أهدي ، وهو عبد الله كذب عليه . وقد تبين لي ذلك فيما مضى من عمري ، قد كنت أقول

القول ثم يتبين لي أنه خطأ فرجع عنه .

« وما من كلام نسمعه لفرقة منهم ، إلا ولخصومهم عليه كلام يوازيه أو يقاربه ، فكل بكل معارض وبعض ببعض مقابل ، وإنما يكون تقدم الواحد منهم وفلجه على خصمه ، بقدر حظه من البيان وحذقه في صعة الجدل وانكلام وأكثر ما يظهر به بعضهم على بعض ، إنما هو إلزام من طريق الخدن على أصول مؤصلة ، ومناقضات على مقالات حفظوها عليهم ، فهم يطالبونهم بعودها وطردوها ، من تقاعد عن شيء منها سموه من طريق الخدل ، منطقاً وجعلوه مطلقاً ، وحكموا بالفلج لخصمه عليه .

والخدل لا يبين له حق ، ولا تقوم به حجة ، وقد يكون الخصمان على مقالين مختلفتين كليهما باطلة ، ويكون الحق في ثالثة غيرهما لمناقضة أحدهما صاحبه غير مصحح مذهبه وإن كان مفسداً له قوياً خصمه لأنها مجتمعان معاً في الخطأ مشتركان فيه كقول الشاعر فيهم :

حجج نهافت كالزجاج تحاطا حقاً وكل كاسر مكسور

وإنما كان الأمر كذلك لأن واحداً من الفريقين لا يعتمد في مقالته انتهى بصرها أصلاً صحيحاً وإنما هو أوضاع وآراء تتكافأ وتتقابل ، فيكثر المقال ويدوم الاختلاف ، ويقبل الصواب .

قال الله تعالى : ﴿ وَوَكَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوِجُدُوا فِيهِ خْتِلافاً كَثِيراً ﴾ .
فأخبر سبحانه أن ما كثر فيه الاختلاف فإنه ليس من عنده ، وهذا من أدل الدليل على أن مذاهب المتكلمين وسده لكثرة ما يوجد فيها من الاختلاف المفضي بهم إلى التكفير والتصليل ، وذلك صفة الباطل الذي أخبر الله سبحانه

عنه . ثم قال في صفة الحق : ﴿ من يهدف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ (٤) .

القسم الثاني :

وبأني الآن إلى ما ذكره الإمام العراقي في كتابه « إحياء علوم الدين » ط الشعب ج ١ ص ١٦٣ وما بعدها ، إنه يقول :
فإن قلت تعلم الحدل والكلام مدموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه ؟ فاعلم أن للناس في هذا علو وإسرافاً في أطراف فسر قائل إنه بدعة وحرام وإن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ديب سوى الشرك ، خير له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل إنه واجب وفرض إما على لكهية أو على الأعيان ، وأنه أفصل الأعيان ، وعلى القربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ، ونصال عن دين الله تعالى .

وبلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله - سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصاً الفرد ، وكان من متكلمي المعتزلة ، يقول لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ديب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام ولقد سمعت من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه

وقال أيضاً : قد طلعت من أهل الكلام عن شيء ما طنته فط ، ولأن يسلي العبد بكل ما هسى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن يطر في الكلام .

(٤) كلام أبي أحمد بن محمد الخطابي في كتابه : الغية عن الكلام

وحكى انكرايسى أن الشافعي رضى الله عنه سئل عن شيء من الكلام
فغضب وقال سل عن هذا حصصاً المرد وصحابه أنزاهم الله
ولا مرض الشافعي رضى الله عنه دخل عليه حصص فقال له من أنا ؟
فقال حصص المرد . لا حفظك الله ورعاك حتى تنوب مما أنت فيه
وقال أيضاً . لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه هربهم من
الأسد

وقال أيضاً . إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد
بأنه من أهل الكلام ولا دين له .

قال الزعفراني . قال : الشافعي حكى في أصحاب الكلام أن يضربوا
بالحرير ويطاف بهم في القنائل والعشائر ويقال هذا جزء من ترك الكتاب
والسنة ونخذ في الكلام

وقال أحمد بن حنبل . لا يبلح صاحب الكلام أنداء ، ولا تكاد ترى أحداً
يطرق الكلام إلا وفي فله دعر ، وبالع في دمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع
هذه وورعه بسب تصيفه كتاباً في الرد على استدعة . وقال له : ويحك ألسنت
تحكى بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم ! ألسنت تحمل الناس بتصيفك على مطالعة
استدعة ولتصكر في تلك الشبهات ؟ يدعوهم ذلك إلى الرأي والبحث .

وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة

وقال مالك رحمه الله : رأيت إن جاءه من هو أحدل منه ؟ أيدع ديه كل
يوم لدير جديد ؟ يعنى أن أقوال المسحدين تتفاوت
وقال مالك رحمه الله أيضاً . لا تخور شهادة أهل البدع والأهواء فقال

بعض أصحابه في تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا .

وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام ترتدق
وقال الحسن . لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجاسوهم ولا تسمعوا منهم
وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ، ولا يتحصر ما نقل عنهم من
التشديدات فيه . وقالوا : ما سكت عنه الصحابة ، مع أنهم أعرف بالحقائق
وأصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بـ يتولا منه من الشر ، ولذلك
قال . النبي ﷺ (٥) : هلك المنتطعون ، هلك المنتطعون ، هلك المنتطعون ؟
(أي المتعمقون في البحث والاستقصاء جدلاً) .

واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول
الله ﷺ ويعلم طريقه ويشي عليه وعلى أربابه فقد علمهم الاستحشاء (٦) وبلغهم
إلى علم الفرائض وأثنى عليهم (٧) وبهاهم عن الكلام في القدر وفار . (أمسكوا
عن القدر) .

وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالزيادة على الأستاذ طعان
وظم . وهم الأستاذون والقذوة . ونحن الأتباع والتلامذة
وقد ذكر الإمام ابن عرابي بعد ذلك رأى الفريق المعارض هذا ورأيه
الشخصي ؛ ولكنها مكتبي ها بأن يذكر رأى الأئمة الذين يقتدى بهم في
عبادتنا ، ورأى المحدثين

(٥) حديث هلك المنتطعون مسلم من حديث ابن مسعود

(٦) حديث أن النبي ﷺ علمهم الاستحشاء مسلم من حديث سنان الفارسي

(٧) حديث بلغهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم . ما جاء من حديث أبي هريرة عن عمر الفرائض
وعلموها الناس الحديث ، والترمذي من حديث أنس وأمرهم يريد بن ثابت

إننا مع هؤلاء ومها قبل من آراء أخرى ، فإننا نكتب برأي هؤلاء ونعتر
بأن نكون في صف الشافعي ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، والثوري ،
وجميع المحدثين

الفصل الرابع

علم الكلام فيما ينبغي أن يكون

١

هذه المسائل التي ذكرناها تكون مع فروعها ولوازمها ثلاثة أرباع علم الكلام التقليدي على التقريب

وقد يتساءل القارئ عن علم الكلام فيما يسعى أن يكون وعلم الكلام فيما ينبغي أن يكون ، إما يدور حول النوبة أولاً ، به يدور حول إثباتها على وجه العموم ، وإثباتها في استفاضة على وجه الخصوص بالنسبة لسيدنا محمد حاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ويدور ثانياً حول بيان أن الدعوة في آياتها المحكمات إما هي . آيات بيّات في صدور النبي أوتوا لعلم . وأن الدين يرتابون فيها هم المخطئون وأن الدين يمحطون بها هم الظالمون وتعتبر آخر . يتركز علم الكلام في الداعي والدعوة ، إنه يتركز في الداعي في صورة مستفيضة ، ويتركز في الدعوة على صورة مجملة .

وهذا الذي نذكره : إما هو المنهج الذي اختطه القرآن والآية الكريمة التالية . تجمع الحانين ، يقول الله تعالى .

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذن
لا رتاب المبطلون ﴾ .

وهذا في شأن الداعى ، وتستمر الآيات ، فيقول الله تعالى :
﴿ بل هو آيات بينات في صلور الدين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا
الظلمون ﴾ .

وهذا في شأن الدعوة

وهذا المنهج هو منهج الرسول ﷺ ، يتابع فيه القرآن ، فإنه ، ﷺ ،
حين أمر بالجهر بالدعوة : يحدى العرب بصدقه . أى أنه ، ﷺ ، كان يبين
صدق الداعى .

ولما جاءه عتبة يعاوضه في شأن النزول عن دعوته ، لم يعمل ، ﷺ ، شيئاً
سوى أنه قرأ عليه صدر السورة الكريمة ، سورة فصلت .

وهذا المنهج : هو الذى اتبعه أصحاب الآفاق الراسخة من الشرى
الوصول إلى تعرف الحقيقة عن طريق : حان الداعى . وقيمة الدعوة . وهو
المنهج الذى يريد أن يلتزمه إن شاء الله تعالى متحذرين من الوسائل لذلك آراء
بعض الذين اتبعوه ومن الله نرجو العون والهداية .



إن الله يصطفى من الناس رسلاً

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على لعالمين ﴾ (١)
بصطفيتهم فيعلمهم إعداداً خاصاً قبل ميلادهم ، يعلمهم فى أصلاب

(١) آل عمران : ٣٣

أحاديدهم وآبائهم ، عيتحير الله عز وجل لهم الأحادياد والآباء يقول الإمام
البوصيري عن رسول الله ﷺ

لم تر في ضوائر نكور تحتاً ر لك الأمهات والآباء

ويقول : أبان مولده عن طبب عصره

يعد سبحانه ، أوعيتهم - احداث والأمهات - حلقاً وحلقاً ، وبعد

سبحانه الرسل بعد ميلادهم : وسطاً ، وبيئة

يعدهم على عيبه : ﴿ ولتصع على عيني ﴾

ويصططعهم لنفسه . ﴿ واصطنعت نفسي ﴾

ويقول ﷺ ، عن كل ذلك فيما رواه الإمام مسلم « إن الله اصطفى من ولد

إبراهيم - إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل - بني كنانة ، واصطفى من بني

كنانة - قريشاً ، واصطفى من قريش - بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »

لقد رسم الله ماصيهم المعبد - ورسم حاضرهم الذي عاشره طفولة فشباباً

فكهولة ، فشبحوحة ، منذ الأزل - يقول سبحانه وتعالى في سيدنا عيسى عليه

السلام :

﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن

مريم وحيها في الدنيا والاحرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن

الصالحين ﴾ (٢) .

﴿ ولجعلناه آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقصياً ﴾ (٣)

وهذا الذي يذكره ، عز وجل ، عناسة سيدنا عيسى عليه السلام من أنه

(٢) آل عمران (٤٥ - ٤٦)

(٣) مريم - ٢١

كان أمراً مقضياً ، قبل ميلاده يسر خاصاً بسيدنا عيسى ، إنما هو عام في كل الأنبياء والرسل ، إن أمرهم كان مقضياً قبل أن يولدوا ، بل إن الله سبحانه وتعالى . قصي في أرله أن يكونوا ذوي حسب في قومهم . وذى معة من عشيرتهم

٣

ولرسل والأنبياء علامات مميزة . وسمات محددة يتحدث عنها ابن خلدون حديثاً دقيقاً ، يقول :

علم أن الله سبحانه اصطلى من البشر أشخاصاً حصهم بحطابه ، وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده ، يعرفونهم بمصالحهم ، ويحرسونهم على هدايتهم ، ويأخذون بحجراتهم عن النار ، ويدلوهم على طريق الحياة

وكان فيما يلقى إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار ، لكائنات المعية عن البشر ، التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعمونها إلا بتعليم الله إليهم قال ﷺ .

« ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني الله » .

واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق ، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة

وعلمة هذا الصف من البشر أن توحد هم في حاد الوحي عبية عن الخاضعين معهم مع عطي كآنها عشية أو إعماء في رأى لعين وليست مهبها في شيء . وإنما هي في الحقيقة ستعراق في لقاء الملك الروحاني بإدراكهم المناسب

هم الخارج عن مدارك ابشر بانكلية ثم ينزل إلى المدرك البشرية بما سمع
دوى من الكلام فينتهممه ، أو يتمثل له في صورة شخص يخاطبه بما جاء به من
عبد الله ثم تجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما أتى إليه قال ﷺ ، وقد سئل
عن الوحي : « أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني
وقد وعيت ما قال . وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول »
ويدركه في أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر عنه في الحديث :
« كان مما يعالج من التنزيل شدة »

وقالت عائشة . « كان ينزل عليه الوحي في اليوم لشديد البرد فيصم منه ،
وإن جئته ليمصده عرقاً » .

وقال تعالى ﴿ إِنَّا سَلَقْنَا عَيْتَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾
ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ،
ويقولون . له رفى أو تابع من الجن ، وإثماً ليس عليهم بما شاهدوه من ظاهر
تلك الأحوال . ﴿ وَمَنْ يَصِلْ إِلَهُ فَأَمْرُهُ إِذْ يَهَادِ ﴾
ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاة . وحماية
الدمومات والرحس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه معطوف على التنزه
عن الدمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لحقيقته ، وفي الصحيح أنه حمل
الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لئلا الكعبة يجعلها في إراره ، فاكشف
فسقط معشياً عليه حتى استتر بإزاره ، ودعى إلى مجتمع ولحمة فيها عرس ولعب
فأصابه عشي النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل ربه
الله عن ذلك كله ، حتى إنه يحببته يتره عن المطعومات المستكرهه فقد كان
ﷺ لا يقرب لصل ولثوم فقيل له في ذلك فقال .

« إني أناجي من لا تتاجون » .

وانظر لما أحبر النبي ، ﷺ ، حديجة ، رضى الله عنها ، بحال الوحي أول ما صحته وأرادت احتشاره ، فقالت : احملني بينك وبين ثوبك ، فما فعل ذلك ذهب عنه ، فقالت : إنه ملك وليس بشيطان .

ومعناه أنه لا يقرب النساء

وكذلك سأله عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها

فقال : البياض والخضرة .

فقالت : إنه الملك

يعنى أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسواد من ألوان الشر والشياطين وأمثال ذلك .

ومن علاماتهم أبصاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف وقد استندت حديجة على صدقه ، ﷺ ، بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل نخرج عن حاله وحلقه

وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ، ﷺ ، يدعو به إلى الإسلام أحضر من وحد بلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ليسأله عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال : بم يأمركم ؟

فقال أبو سفيان : بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه ، فقال :

« إن يكن ما يقول حقاً فهو بي ، وسيملك ما تحت قدمي هاتين »

والعفاف الذي أشار إليه هرقل هو العصمة .

فاظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة ، دليلاً على صحة

بيوته ، ولم يفتح إلى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة . ومن
علاماتهم أيضاً أن يكونوا دوى حسب في قومهم وفي الصحيح . « ما بعث
الله نبياً إلا في منعة من قومه » وفي رواية أخرى « في ثروة من قومه » ، استدركه
الحاكم على الصحيحين وفي مسأله هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح
قال : « كيف هو فيكم ؟ »

قال أبو سفيان : « هو فينا ذو حسب » .

فقال هرقل . « وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها »
ومعناه أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه عن أدى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه
وإنما مراد الله من إكمال دينه وملته .
ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، وهي أفعال
يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة . وليست من حسن مقدور
العبد ، وإنما تقع في غير محل قدرتهم (١) « ا هـ .

٤

فإذا أصبحت يوسهم - بترية الله وعمايته - أهلاً للتلقي فاجأها الوحي
وهي سائرة في الوادي المقدس . وفي البقعة المباركة
﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً
لعل آتيكم منها بقبس أو أحد على النار هدى فلما أتاهم نودي يا موسى إني أنا
ربك فاحلح بعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترت فاستمع لما يوحى

(٤) مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور علي عبد الواحد

إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن لساعة آتية أكاد أخفيها تتحزى كل نفس بما تسعى فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتع هواه فتردى ﴿٥٥﴾

﴿٥٥﴾ فيها قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من حباب لطور باراً قال لأهله امكنوا إني آتيت باراً لعل آتيكم منها بحر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاهم نودي من شاطئ الوادئ الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴿٥٦﴾

ويفاجئها الوحي وهي في غار حراء

وعندنا في الإسلام الوثيقة الوحيدة في العالم كله عن كيفية بدء الوحي وهي وثيقة تحمل في طياتها كثيراً من المعاني الخاصة بالنبوة وبصفات رسول الله ﷺ ، وهي تشير في صراحة ويسر وسهولة إلى كثير من الآيات الدالة على صدق رسول الله ، وخاتم النبيين ، ولا مباحص من الاستفاضة في شرحها وتحليلها فهي دخيرة من انعم الله على عباده بالهداية للمتأمنين ، وهذه الوثيقة رويت بثق الطرق وبمختلف الأسانيد ، وانقرّب يشير إلى الحالة التي تذكرها بصراحة لا لئلا يس فيها يقول سبحانه .

﴿٥٦﴾ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً هدى له من شاء من عبادنا وإليك التهدي إلى صراط مستقيم ﴿٥٧﴾

(٥٥) طه ٩ ، ١٦

(٥٦) القصص . ٢٩ ، ٣٠

(٥٧) الشورى . ٥٢

﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي

مبين﴾^(٨)

أما الوثيقة التي نتحدث عنها فإن بقلها هنا عن أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ، وهو كتاب صحيح البخاري . عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت .
أول ما بدئ به رسول الله ﷺ ، من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ،
فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حب إليه خلل ، وكان
يخلو بهار حراء ، فيتحنث فيه . وهو التعداد لليلالي دوات العدد قبل أن ينزع إلى
أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في
غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ

قال : ما أنا بقارئ

قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني

فقال : اقرأ

قلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ،

فقال : اقرأ

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال .

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك

الأكرم﴾

مرجعها رسول الله ﷺ ، يرجع فؤاده فدخل على خديجة بنت

خويلد . رضى الله عنها ، فقال رملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

فقال خديجة وأحضرها الخمر . لقد خشيت على نفسي

(٨) الشراء ١٩٣ - ١٩٥

محلى الوحى وتتاع »

ولنبداً الآن بتحليل هذه الوثيقة الغبية بالمعنى ، الزاحرة بالمصميم ، الثرية بالدلالات .

9

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها .

« أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى . الرؤيا الصالحة فى اليوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح »
وتعبر السيدة عائشة بهم منه أن الرؤيا الصالحة من الوحى . ومن الأحاديث التى سدد هذا وتأييده الأحاديث التى برشد إلى أن لرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

وهذا الذى قالته السيدة عائشة هو أحد الأدلة على السوء ، والذى نهى إليه عباقرة الفكر وأساطين الآفاق الدهنية الرجبة .

فهذا هو الفارابى يتحدث فى كتابه : (آراء أهل المدينة العاصلة) عن لرؤيا فىكتب فصلاً مستقلاً عن سبب المنامات ، ثم يتبع هذا مباشرة بفصل آخر (فى الوحى ورؤية الملك) .

وهو يرى أن الرؤيا الصادقة بما هى اتصال بين الأرض والسماء يتم حينما تكون المحسات الواردة عن صديق الخواس لا تستغرق القوة المتحيلة استعراقاً تاماً

وهذا الذى يتم من هذه الصلة ، حينما تكون الخواس معطلة بالنوم . قد حربه أكثر الخلق ، إن لم يكن كنهم ، وحسب الس إذن عندهم جزء من

أسوة ، يرشد هم إلى الاستدلال على صحتها وإمكانها ، إذا تبصرو فيه وترووا في أمره

وهذه الفكرة تسلمنا إلى التحدث عن رأى الإمام العزلى . إنه يتحدث في كتابه : (إحياء علوم الدين) ، في الاستدلال على أن الاتصال بين السماء والأرض في صورة الوحي أمر ممكن وموجود ، ويذكر الدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على حمله . ويراها أمرين :
أحدهما : وهو الذى سنقتصر على ذكره هنا إن شاء الله تعالى - عجائب الرؤيا الصادقة :

فإنه يكشف ما الغيب وإذا جار ذلك في النوم فلا يستحيل أيضاً ، في اليقظة فلن يفارق النوم اليقظة إلا في ركود الحواس ، وعدم اشتغالها بالمحسّات . فكم من مستيقظ عاثر لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه بيد أن الإمام العزلى يفصل الأمر بعرض التفصيل ، حينما يعود إلى الموضع في كذبه . (المفقود من الاتصال) فيشرح لأمر في صورة أولى نوعاً ما ، به يقوى :

وقد قرب الله ، تعالى ذلك على خلقه ، بأن أعطاهم أنموذجاً من خاصية السوء ، وهو النوم ، إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب : إما صريحاً ، وإما في كسوة مثار يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يحربه لإسار من نفسه - وقيل له . إن من الناس من يستيقظ معشياً عليه كالميت ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره ، فيدرك الغيب لأفكره . وقام الدهان على استحلاته ، وقال . القوى الحساسة من أسباب الإدراك . هي لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها . فإن لا يدركها مع ركودها أولى وأحق . وهذا برع قياس يكذبه

الوحد والمشاهدة . فكما أن للعقل طوراً من أطوار الآدمي ، يحصل فيه عين
يبصر بها أنواعاً من المعقولات والحواس مغزولة عنها ، فالنبوة أيضاً عبارة عن
طور يحصل فيه عين لما نور يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل .
ولقد حددت السيدة عائشة ، رضى الله عنها الرؤيا بأنها الصالحة ، وهذا
التحديد له أهمية كبرى ، فما من شك أن الأمر كما يقول الرسول ، صدقات الله
وسلامه عليه :

« الرؤيا الصادقة من لرجل اصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من
النبوة »

« وإن الرؤيا من الله والحلم من الشيطان »

« وإن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »

« وأنه لم يبق من النبوة إلا المشرات قالو . وما المشرات ؟ قال . الرؤيا
لصالحة »

هذه الأحاديث التي نقلناها عن الإمام البخاري رضى الله عنه تساهم
أحاديث أخرى ، ونسهي الأمر بالأحاديث إلى تقسيم ما يراه النائم إلى ثلاثة
أقسام :

قسم من الله وهو الرؤيا الصادقة ، وقسم من الشيطان ، وقسم مما يحدث به
الرجل نفسه في اليقظة فيراه في النوم .

وهذه الأقسام تشتمل على جميع ما يراه الإنسان في النوم .

أما العلم الحديث فقد بين في وضوح تام أثر العوامل الخارجية ، والعوامل
الداخلية الدخيلة في الرؤيا .

لقد « أنان (عرويد) في جلاء أثر الميوس الكامنه في تشكيل الرؤى

والأحلام ، وخاصة لدى الكهول والشباب . واستطاع (هرتز) و (موري) أن يبرها على أن الحلم ، غالباً . ما يكون امتداداً لإحساس سابق ، أو نتيجة لإحساس مقارن ، فقد يحلم الإنسان بحريق في حجرته في الوقت الذي يقع فيه نصيب من الضوء على حديقته في أثناء نومه ، أو بأنه بصرب على أثر ألم في ظهره ، وقد حدث مرة . أن رأى شخص أن داره تنهار في الوقت الذي انكسرت فيه إحدى فوائمه سريره ، ولقد وصل لأمر « هرتز » أن طرأ بناء على ما سبق - أنه يمكن أن ينصرف الإنسان في أحلامه ويشكلها كما يشاء فتقريباً صلة بين بعض لإحساسات وذكريات معينة ، استطاع في نومه استعادة هذه الذكريات بإثارة الإحساسات المتصلة بها .

وقديماً حاول الإغريق أن يحتفظوا بأحلامهم أو يشرحوها ، بواسطة بعض الطقوس الدينية^(١) .

وهذا الذي يذكره العلم الحديث في تفسير الرؤيا حق لا مراء فيه بيد أن فيه قصوراً وضحاً وحوهرياً عن التفسير الديني للرؤيا فالدين يذكر ما يذكره العلم الحديث ، ويريد عليه ما هو بدهي عند كل إنسان : من وجود نوع الرؤيا الصادقة هو كشف للغيب وتنبؤ به ، سواء أكان غيباً مكانياً ، أم غيباً زمانياً

وهذا النوع من الرؤيا الصادقة تعترف به الأديان السماوية الكبرى جميعها ، فهي تتحدث عن رؤيا يوسف عليه السلام ، ورؤيا الملك الذي استدعى يوسف عليه السلام من السجن لتأويل رؤياه ، ويقول لقرآن الكريم في شأن رسولنا عليه الصلاة والسلام :

(٩) ص كتاب ، في الفلسفة الإسلامية للدكتور إبراهيم مدكور

﴿ فقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين علقين رءوسكم ومقصري لا تحافون ﴾

يبد أن الطريف في موضوع الرؤيا . أن لها معبرين ، أو مؤولين أو مفسرين : فإياها ، في الأغلب الأعم : رمزية ، وحل هذه الرموز ، بما هو قائم بنفسه ، اشتهر به رجال . وكتبت فيه كتب .

فمن الرحان مثلاً ، محمد بن سيرين ، وعبد العلى ابن أبى سفيان ، وحليل بن شاهين لطاهري ، وكل منهم ألف في هذه المادة كتاباً

ولقد كان رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه يسأل الصحابة ، رضوان الله عليهم ، عن رؤياهم ويعبرها لهم ، ويحدثهم هو أحياناً عن رؤيا له ويعبرها ومن ذلك ما قاله صلوات الله عليه وسلامه فيها رواه مسلم :

« رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا في دار عقبة بن رافع ، فأوتينا برطب من رطب ابن طاب »

« فأولت الرقعة لنا في الدنيا ، والرقعة في الآخرة . وأن دسا قد طاب »

وتعبر الرؤيا وتفسرها من يشرك فيه الآن علماء التحليل النفسى ، وهؤلاء الذين يلهمهم الله التعبير من الصالحين .

يبد أن علماء التحليل النفسى يقتصرون على تعبرها في حوائج الحسية المادية ويكتفون بذلك ، أما الآخرون : فإياهم يعبرونها في حوائج العبية البصادقة ولا يضبر الحق أن يسجن علماء التحليل النفسى أنفسهم ، وأن يسجن العلم الحديث نفسه في سجن المادة والخواص ، فإن الحق في أمر الرؤيا واضح أنج .

والدس من شرقيين وعربيين ، ومن قدماء ومحدثين ، يلاحظون وجود الرؤيا الصادقة ، ووقوعها بحرى في دائره تجاربهم .

بعد أن تحدثت أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها : أن .
 « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ ، من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ،
 فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ... »
 بعد أن ذكرت السيدة عائشة هذا . أخذت تصف حال رسول الله ،
 صلوات الله عليه وسلامه قبل الوحي :
 لقد حب الله إليه الخلاء فكان يغادر مكة ويستمد عن حياتها الصالحة ،
 التي كان يرى فيها من الصلال الشيء الكثير
 يتركها ليحبو بغار حراء هريداً يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبداً ، حاشعاً طالباً
 رضاه ، وآملاً في هدايته
 كان يتعش في هذا نهار . أى يتعد فيه الليالي دوت لعدد ، قبل أن
 يتزعج إلى أهله ، ويتزود ببعود من حديد إلى السك ، وإلى العبادة
 لم يكن يدرى يطلب مالا ، أو ثراء ، أو لذة مادية ، أو حاشاً ، أو محمداً عند
 لناس ، إنه يطلب الهداية ويبحث عنها
 ولقد وضع عزوه عن زخارف الحياة وضوحاً يياً في قوله وسلوكه .
 وتذكر السيرة النبوية ببأس لم مغرى واحد عميق
 أما النساء الأول فهر . أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً في قومه ، قال يوماً
 وهو حالس في نادى قريش ورسول الله ﷺ حالس في المسجد وحده :
 يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عنه أموراً لعمه يقبل

بعضها معطيه أيها شاء

وذلك حين أسمع حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ ، يربطون ويكثرون

فقالوا : بلى يا أبا الوليد : قم إليه فكله

فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا من أحى
بك ما حيث قد عمت . من السطة في العشرة . والكمال في السب ،
وبك قد أنت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم
وعت به آهتهم ، وكفرت من مصي من آثامهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمراً
نظر فيها ، بعلك تقل مني بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ : اقل يا نأ لوليد أسمع ؟

قال : يابن أحى ، إن كنت إنما تريد عما حثت به من هذا الأمر مالأ ،
جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالأ

وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا

وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طيباً لك
الطب ، وبدلنا فيه أموالنا حتى نترك منه ، فإنه ربما علب انتاع على الرجل
حتى يدوي منه .

حتى إذا هرع عتبة ، ورسول الله ﷺ . يستمع منه قال : أقعد هرع

يا أبا الوليد ؟

قال : نعم

قال : فاسمع مني

قال : افعل .

فقال ﷺ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم حم تريم من الرحمن الرحيم ﴾
كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم
لا يسمعون وقالوا بلوننا في أكنة مما تدعونا إليه ﴿

ثم مضى رسول الله ﷺ ، يقرؤها عليه
فما سمعها منه عتة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها
يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ ، إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال .
« قد سمعت يا أما الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك »
فقام عتة إلى أصحابه فقل بعضهم لبعض . خلف بالله لقد جاءكم
أنوال الوليد بغير الوحد الذي ذهب به !!!

فلما جلس إليهم قالوا :

« ما وراءك يا أبا لوليد ؟ » قال :

« ورأيت . أتيت سمعت أولاً ، والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ،
ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش . أطيعوني واحسنوه لي . وحلوا
بين هذا الرجل وبين ما هو فيه . فاعتزلوه فوالله ليكوس لقوته الذي سمعت منه
بأن ، فإن قصصه اعرب فقد كسبتموه بعيركم . وإن يظهر على العرب منك
ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به »

قالوا : « سحرك والله ، يا أما الوليد بلسانه »

قال :

« هذا رأيي فيه ، فاصبروا ما بدا لكم »

قد يموت فائل . إن هذا العرص قد عرص على محمد من فرد واحد . وبنو

أنه عرض عليه عليه السلام من هيئة يستطيع ببيده ثقل هذا القوم . ينقصه أن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش ، وينقصه أيضاً الخبر لآخر الذي ترويه كتب السيرة ، وهو

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبوسفيان بن حرب ، والنصر بن الحارث - أخو بني عبد الدار - وأبو السحرى بن هشام . والأسود بن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، وأبوليد بن المعيرة ، وأبو جهل بن هشام - عليه لعنة الله - وعبد الله بن أبي أمية ، وأبوعاص بن وائل ، وبنوه ومنه ابنا الحجاج السهميين ، وأممية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند طهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

« بعثوا إلى محمد فكلّموه ، وخاصموه ، حتى تعدوا فيه فبعثوا إليه . أن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك فأتهم فحاجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بدور ، وكان عليهم حريصاً : يحبّ رشدهم ويعزّ عليه عنهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له .

« يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعنت الأديين وشتمت الآلهة وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما نرى أمراً قبيحاً إلا جئته فيما بينهم وبينك .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً حمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فيما نحن نسودك عينا

وإن كنت تريد به منكاً ملكك علينا

وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الحر رثياً - فرمما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا في طيب الطل لك حتى يبرئك منه أو نعذر إليك .

فقال لهم رسول الله ﷺ :

« ما لي ما تقولون ، ما حثت بما حبسكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم نبياً وهدياً ، فليعلمكم رسالات ربي ، ونصحت لكم فإن فصلوا ما حبسكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عني أضرب لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

هذا العزوف عن المحد والحاه عند الناس ، وعن المان والثراء ، وعن الدنيا كلها ، تؤيده حياته ، صوات الله عليه وسلامه من أوطأ إلى آخرها ويؤيده القرآن تأييداً حاسماً صريحاً :

﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أحرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾ (١٠)

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبحسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (١١)

(١٠) سآ ٤٧

(١١) هود : ١٥ ، ١٦

﴿ من كان يريد العاجنة عجساً له فيها ما شاء لمن يريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ (١٢).

﴿ اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وريّة وتمّاحر يسكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعحب الكفار ناته ثم يهبع فزاه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع العرور ﴾ (١٣).

وعن حبيب بن نعيم ، رضي الله عنه ، قال . « دخلت على عائشة ، رضي الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله ، ﷺ ، فقالت : القرآن . وحقبة الأمر : أن رسول الله ، ﷺ ، كان في كل ما يأتيه وكل ما يدعه قرآناً مطبقاً ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى في بيان ذلك في شأنه ﷺ : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ (١٤) . ﴿ وإني لعلّ خلق عظيم ﴾ . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ (١٥) .

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالكت من الله من ولي ولا وافي ﴾ (١٦) .
﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ (١٧)

(١٢) الإبراء : ١٨

(١٣) الحديد : ٢٠

(١٤) يوسف : ١٥

(١٥) المائدة : ١٨

(١٦) الرعد : ٣٧

(١٧) هود : ١١٢

كانت تأتيه الدنيا فيفقهها وهو حائس « أتى إليه صلوات الله وسلامه عليه ،
سبعون ألف درهم ، فوضعها كما يروى هارون بن رباب - على حصير ، ثم
قام إليها بقسمها ، لما رد سائلاً حتى فرغ منها
وبينا هو عائد من حين ، تكاثرت الأعراب عليه يسألونه وحطفوا
رداءه فوقف رسول الله ﷺ ، وقال أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه
العصاة (شجر عظيم له شوك) يوماً لقسمته بيسكم ، ثم لا تجدونني محيلاً ،
ولا كذاباً ، ولا حباناً ، ويقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه :
« مالي وللدنيا » .

ويقول عليه السلام : « عرضت علي الدنيا فأيتها » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه :

« حيرت بين أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً ، فاخترت أن أكون
عبداً رسولاً » .

« ولقد كان رسول الله ﷺ كما يروى عن أنس رضي الله عنه أحب
شخص إلى الأبصار ولمهاجرين ، ولكم كانوا إذا رأوه لا يقومون له ، لما
يعرفون من كراهيته له : « أي لقيام له » ويقول ، ﷺ ، لأصحابه :
« إن الدنيا حوة حصرة ، وإن الله تعالى مستخلصكم فيها فينظر كيف
تعملون ، فانقروا الدنيا وانقروا النساء » .

ويقول ، ﷺ ، لأصحابه وهم حاسون حوته

« إن مما أخاف عبيكم من عدى ، ما يفتح عبيكم من زهرة الدنيا
ورينتها » .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ما كان يتطلع إلى الدنيا في مختلف

حوادثها : وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ رين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والمناظر المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام وحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المثاب ﴾ (١٨) .

عزوفه ، ﷺ ، عن الدنيا : قضية هي ، من البداهة : بحيث تفضأ في البطرة الأولى كل دارس لسيرته ، ﷺ .

وحينما رفعه الله إليه ، لم يترك الصياغ والعمارات والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ، وإنما ، ترك وراءه مبادئ الحق التي أوحاها الله إليه ، والتي مكث طول حياته يحاهد بقوله وعمله في سبيل إقامتها ونشرها ويكافح كفاحاً لا يهدأ ولا يفتري في سبيل تدعيمها .

وترك وراءه رجالاً يؤمنون بهذه المبادئ ، وبأنهم مكلفون - باعتبارهم من المسلمين - بنشرها وإذاعتها بين أرجاء العالم أجمع .

ونترك غيراً بتصوع رحمة ، ويشع نوراً ، مهما طالبت القرون وبطاول الأزمنة .

إنه ، ﷺ هو تلك الصورة الحية لتطبيق القرآن . فكان ، ﷺ : عارفاً عن الدنيا ، ما في ذلك من شك ، وكان عارفاً عن الدنيا ، لسعيه وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتي وفي يدع ، مرصياً لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقاً حتماً

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه ، صلوات الله وسلامه عليه .

(١٨) آل عمران : ١٤

«حبر رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، خديجة ، رضى الله عنها ، عما حدث له وقال :

« لقد خشيت على نفسي . فقالت السيدة الكريمة
«كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ،
وتكسب المعدوم ، وتقري الصيف ، وتعين على نوائب الحق »
ثم تطلب السيدة خديجة ، رضوان الله عليها ، دليلاً ، ولا إثباتاً ،
ولا برهاناً ، ولا معجزة ، وإنما استدلت بحالته وبحياته ، وأخلاقه ، على
صديقه ، صلوات الله وسلامه عليه .

ورداً كان علماء الكلام يكادون يقصرون كلامهم في إثبات النبوة على
المعجزة ، فإن اتفاقاً من التفكير أوسع ، وإشراقات من الإلهام أسمى ، تنحه
بالاستدلال إلى وسائل أخرى مضافة إلى المعجزة
يقول الإمام الغزالي :

« فإن وقع لك الشك في شخص معين . أنه نبي أم لا ؟
فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله . إما بالمشاهدة أو بالنوادر والسماع .
فإن إذا عرفت الطب والفقه يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء ، بمشاهدة
أحوالهم ، وسماع أقوالهم ، وإن لم تشاهدهم ، ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون
« الشافعي » رحمه الله فقيهاً ، وكون (خالوس) طبيباً ، معرفة بالحقيقة
لا بالتقليد عن الغير ، بل بأن تعلم شيئاً من الفقه والطب ، وتضالع كنهها ،

وتصانيفها فيحصل لك علم ضروري محالها .

فكذلك ، إذا فهمت معنى النبوة ، فأكثرت النظر في القرآن ، والأخبار ،
بحصل لك العلم الضروري ، بكونه ، صلى الله عليه وسلم ، على أعلى درجات النبوة
وأعز ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب
وكيف صدق في قوله . « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .
كيف صدق في قوله « من أعاد ظالماً سلطه ، الله عليه »
وكيف صدق في قوله : « من أصبح وهوومه هم واحد » (هو التقوى)
كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة .

فإذا حربت ذلك في ألف ، وألفين ، حصل لك علم ضروري لا يتأري
فيه

من هذا لطريق . طلب اليقين بالنبوة ، لا من قلب العاص ثماناً ، وشق
الفسر ، فإن ذلك إذا بطرت إليه وحده . ولم تنصم إليه القرائن الكثيرة الخارجة
عن الحصر : ربما طنت أنه سحر ، وتحيل ، وأنه من الله : إيصال ، فإنه .
﴿ بفضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ .

وترد عليك أسئلة المعجزات . فإن كان مستنداً بإيماء إلى كلام مظلوم في
وجه دلالة المعجزة ، فيحرم إيمانك بكلام مرتب في وجه الأشكال والشبهة
عليها .

فليكن مثل هذه الحوار ، يهدي الدلائل والقرائن في حملة بطرك ، حتى
يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده ، على لتعين كالذي يحبره جماعة
بحر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من
حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا يتعين الآحاد .

فهذا هو الإيمان القوى العلمي .

وأما الذوق فهو كالمشاهدة ، ولأخذ باليد . ولا يوجد إلا في طريق الصوفية

ويحوي الإمام العراقي في اتجاهه هذا إلى أن إثبات السوء . له فصلاً عن المعجزة - طريقان :

أحدهما : حالة الشخص

ثانيهما : دعوته

وإذا كان الإمام العراقي يحوي هذا النحو فإنما هو فيه متبع للقرآن الكريم فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى ، وهي القرآن نفسه ، وتحدث العرب به .

لقد تحدثهم به في عصف . وتحدثهم متدرجاً بهم ، إذ طلب إليهم ، أولاً . أن يأتوا بمثله ، فقال تعالى :

﴿ قل لن حتمعت الإِسْ واحن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١٩)

فأما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

﴿ أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٢٠)

فأما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بسورة من مثله :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا

(١٩) الإِسْراء ٨٨

(٢٠) هود : ١٣

شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تعملوا ولن تفعلوا فتفعلوا الدار
التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿٢١﴾ .
نما عن حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإن القرآن : تحدث عنها من
زوايا مختلفة .

لقد تحدث عنها في صراحة لا لبس فيها ، وتحدث عنها في إشارات ذات
مغرى ، وتركنا فصلاً عن ذلك ، نستخرج من الأحبار الكثيرة التي قصها عنه ،
حوادث لا تعد من السمو الأخلاقى الكريم

قد نحمد صلوات الله وسلامه عليه من كل مصبح ديوى :
﴿ قل ما سألتكم من أمر ، فهو لكم ، إن أخرى إلا على الله ، وهو على
كل شيء شهيد ﴾ (٢٢) .

ولقد لبث فيهم من قل أربعين عاماً فلم يحدثهم بسوء ، ولا برسالة
﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراككم به فقد لبث فيكم عمراً من
قله أفلا تعقلون ﴾ (٢٣) .

ويطلب إليهم لقرآن الكريم أن يتفكروا في أمر صاحبهم هـ ، الذي نشأ
بينهم ، وترعرع عن مرأى ومسمع منهم .

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا
ما بصاحبكم من حنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ (٢٤)
ويشرح المفسرون هذه الآية شرحاً لطيفاً فيقول ، ما ملخصه :

(٢١) البقرة ٢٣ ، ٢٤

(٢٢) مآ ٤٧

(٢٣) يونس ١٦

(٢٤) مآ : ٤٦

إِنَّمَا أُعْطِيتُمْ بِوَاحِدَةٍ مِنْ عِلْمَتُمُوهَا أُصْنَمَ الْحَقِّ ، وَتَحَصَّيْتُمْ ، وَهِيَ أَنْ تَقُومُوا
لَوَجْهِ اللَّهِ خَالِصًا : اثْنِ اثْنَيْنِ ، وَوَاحِدًا وَاحِدًا « ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ » فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ،
ﷺ .

أَمَّا الْإِثْنَانِ فَيَتَفَكَّرَانِ وَيُعْرِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُحْصُولَ فِكْرِهِ عَلَى صَاحِبِهِ ،
وَيَنْظُرُونَ فِيهِ مِنْصَادِقَيْنِ ، مَسَاصِفَيْنِ ، لَا يَبِيلُ مِنْهُمَا اتِّبَاعَ الْهَوَى ، وَلَا يَنْصَرُّ لَهَا
عِرْقَ عَصِيَّةٍ ، حَتَّى يَهْجُمَ مِنْهُمَا الْفِكْرُ الْبَصَالِحَ ، وَالنَّظَرُ الصَّحِيحَ ، عَلَى حَادَةِ
الْحَقِّ وَسُنَّتِهِ .

وَكَذَلِكَ الْفَرْدُ ، يَمْكُرُ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ وَبَصَرَةٍ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكْبُرَ ، وَيُعْرِضُ
فِكْرَهُ عَلَى عَقْلِهِ وَدَهْشِهِ ، وَمَا اسْتَقَرَّ عِنْدَهُ مِنْ عَادَاتِ الْعُقَلَاءِ ، وَخَارِي
أَحْوَالِهِمْ .

وَلِذَلِكَ أَوْحَيْتُ تَعْرِفَهُمْ مِثْلِي وَفَرَادِي : أَنْ الْإِحْتِمَاعَ : مِمَّا يَشُوشُ الْخَوَاطِرَ
وَيَمْنَعُ مِنَ الرُّوِيَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ بِقَلِّ الْإِبْصَافِ ، وَيَكْثَرِ الْإِعْتِسَافِ
وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مَا بِهِ مِنْ حِفْظٍ ، بَلْ عِلْمَتُمُوهُ أَرْحَحَ قَرِيشَ
عُقَلَاءَ ، وَصَلَّهُمْ رَأْيًا وَأَصْدَقَهُمْ قَوْلًا ، وَأَرْهَمَهُمْ نَهْشًا ، فَكَانَ مِظَنَّةً لَأَنْ تَطْلُبُوا
بِهِ الْخَيْرَ ، وَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ كَمَا كُمْ أَنْ تَطَالُبُوهُ بَأَنْ يَأْتِيَكُمْ نَائِيَةً
وَيَصِفُ التَّرَآءُ الْكَرِيمَ حَامِيًا مِنْ حَوَاسِبِ حَيَاتِهِ ، وَيَصِفُ دَعْوَتَهُ يُضَاءُ ،
فَيَقُولُ :

﴿ وَمَا كُنْتُ تَتَّبِعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كَذِبٍ ، وَلَا تَخْطئه بِيَمِينِي ، إِذَا لَارْتَابَ
الْمُطْلُوعُ بَلْ هُوَ آيَاتٌ سَاتَتْ فِي صُدُورِ الدِّينِ أَوْتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَحْجِدُ بَآيَاتِنَا
إِلَّا الْغَافِلُونَ ﴾ (٢٥) .

وإذا وقفنا قليلاً عند هاتين الآيتين ، فإننا نجد أن الآية الأولى : تريد أن نقول : إنه حتى ، لو فرضنا أن محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، كان يقرأ ويكتب ، وكان يتلو من قبله كتاباً ، أو كان يحطه بيديه ، لاقتصر الارتياح على المطلين فحسب .

ذلك أن معاني الكتاب ، ومفاهيم الدعوة التي أتى بها ، والقواعد والمبادئ التي بشر بها ، كل ذلك آيات بيّنة في صدور الذين أوتوا لعلم ، لا يعيها ولا يحجبها إلا الظالمون ، والظالمون في كل آفة يحدون الحق ، ويسكرون المنطق السليم .

ويتوح القرآن الكريم محدثه عن الرسول ، صلوات الله عليه ، هذه الكلمة العقيقة : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

إن ندعوة الإسلامية آيات بيّنة في منطق الحق وفي منطق العقول المستبيرة وها هوذا (أنكم من صبي) : أحد حكماء العرب يهيج بقطرته السليمة هذا الهج من الاستدلال على صدق الرسول ﷺ ، بدعوته : يذكر (الألومى) :

« أنه لما ظهر النبي ، ﷺ ، بمكة ، ودعا إلى الإسلام بعث أنكم من صبي به « حيشاً » فأناه بحجره فجمع بنى نعيم ، وقال هم فيما قال إن أبى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بحجره ، وكتابه يأمر بالمعروف ونهى فيه عن المنكر ، وبأحد فيه محاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وحلح الأوثان ، وترك الخلف بالبراء ، وقد حلف (عرف) دور الرأي مسكم . أن الفصل فيم يدعو إليه ، وأن الرأي ، ترك ما ينهى عنه ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« بن الذي يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً ، لكان في أخلاق الناس حساً »

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة وكرم أخلاق الداعية على صدق الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، هو المحي الذي سار فيه جعفر بن أبي طالب ، وصوان الله عليه ، حينما سأله الجاشي عن أمر دينه ، وذلك أنه لما سافر المسلمون بدينهم إلى الحشنة مهاجرين إليها سب ما ناهم ، من تعذيب أليم ، أرسل القرشيون هدماً إلى الجاشي ، فيه عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، لرد المهاجرين إلى مكة بعبودهم من حديد ، ولما التقى الوفد بالجاشي ، قال له عمرو بن العاص :

إنه قد لحنا إلى ذلك ما علم من سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين استدعوه ، لا يعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آباءهم وأعمامهم ، وعشائركم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً (أي أبصر بهم) وأعظم عما عابوا عليهم .

فلما سمع الجاشي كلامهم رأى ، أن من الحكمة ألا يسم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم ، وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، مدعاهم فلما جاءوا قال لهم .

ما هذا لدين الذي قد فارقت فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

فكان الذي كلمه : جعفر بن أبي طالب ، فقال له :

أيها ابنك ، كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، وبأبائنا الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الخوار ، وبأكل القوى ما الضعيف

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مما نعرف اسمه ، وصدقته ،
وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، ليوحدنا وبعده ، ونجمع ما كنا بعد نحن
وآثاؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان .

أمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الخوار وانكف
عن المحارم ، والدماء ، وهما عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال
اليتيم : وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا شريك به شيئاً وأمرنا بالصلاة ، والزكاة
والصيام

(وعدد عليه أمور الإسلام) .

فصدقناه ، وآماناً به . واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ،
ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم عيننا ، وأحللنا ما أحل لنا . . فعدا علينا
قومنا ، فعدونا . وهربوا عن دينا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله .
تعالى ، وأن يستحل ما كنا نستحل من الحبائث ، فمقهرونا وطمعونا ، وصيقوا
علينا ، وحالوا بيننا وبين دينا ، أخرجنا إلى بلادك

ولما قرأ عليه صدرأ من سورة مريم ، بكى الحاشي ثم قال .
إن هذا ، والذي جاء به عيسى - ليخرج من مشكاة واحدة .
ثم التفت إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فقال لهما
« اطلقا . فلا والله لا أسلمهم إليكما » .

لقد علم الحاشي ، فور سماعه ، انبأى الإسلامية
« أن هذه المبادئ حق وأنها آيات بيّات لا يحى صدقها على أصحاب المطر
السيمة ، وعلم أن ما أتى به محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : إنما يصدر من

المع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى ، عليه السلام .
وبعد فإن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عليه ، والمبادئ الإسلامية ،
من أهم الوسائل التي يسعى أن يتجه إليها المبشرون بالدين الإسلامي لنشرها
وبياها .
وهما أيضاً : من أهم الموضوعات التي يجب أن يتحدها إليها علماء الكلام
الإسلامي ليكون علم الكلام إسلامياً حقاً .

٨

١ ذهبت السيدة خديجة رضي الله عنها مع الرسول ، صلوات الله عليه
وسلامه ، إلى ورقة بن نوفل ، وقالت له :
يا بن عمي ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة :
يا بن أخي ماذا ترى ؟
فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى . فقال له ورقة . هذا الباموس الذي
أنزله الله على موسى .
وتخفى ورقة أن لو كان شاعراً قتيلاً -- ليصر الرسول ، صلوات الله وسلامه
عليه ، نصراً مؤزراً
كان ورقه ، على علم بحياة الرسول ﷺ ، في طهرها وبقائها ، ولكنه
حيثما سمع أول آية من القرآن :
﴿ قَدْ أَقَامَ رَبُّكَ الْخَلْقَ ﴾ لم يملك أن آمن بأن هذا الذي
يتلى - إنما هو : وحى من السماء
إن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ نص على أن القراءة . لا تكون باسم ورب

ولا أمير ، ولا باسم مصفحة شخصية ، ولا باسم مصفحة إقليمية ، ولا باسم عاية
مادية أيًا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة ، ويدا هي : باسم الله

وإذا كانت باسم الله ، فإنها تفيد الشخص باعتباره فرداً .

وتفيد المجتمع الخاص الذي نسميه : « وطناً » .

وتفيد المجتمع الإسلامي العام .

بن وتفيد الإنسانية جمعاء

وإذا ما تحدثت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو : الله
مصدر الخير ولنور ، كانت حيراً ، وكانت بوراً في جميع لأرحاء وفي جميع
الأزمان

وما كان يقصد القرآن قط هذه الكلمة الأولى القراءة وحسب ، وإنما
كانت القراءة : رمزاً لكل ما يأتيه الإيسار في الحجاب الإيجابي ، وكل ما يدعه
لإنسان في الحجاب السلبي .

بن هذه الكلمة الأولى نريد تفهوماً وروحاً

اقرأ باسم ربك ، تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، اعمل باسم ربك
أما إذا امتنعت عن حركة أو فعل ، فيسفى أن يكون ذلك يفسد باسم
ربك .

ويكون معنى الآية في النهاية : « جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسباً
وغايات لله ، سبحانه وتعالى .

وإذا كانت الآية الكريمة واضحة المعنى في الجواب الإيجابي الذي بحث
على القراءه ، والذي بحث على أن تكون القراءة باسم الله ، فإن الحجاب

السلي قد نزلت فيه فيما بعد آيات صريحة الدلالة واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

﴿ولأننا كنو مما لم يذكر اسم الله عليه وبه لفسق﴾ .

وأما ما دبح على المصعب : فلم يرد به وجه الله تعالى . فهو أيضاً فسق ، لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، فكل ما لم يذكر اسم الله عليه إذن : يحسب الامتناع عنه .

أما لإقدام عليه فإنه فسق يتفاوت في درجته . من الرخص زيادة ونقصاناً .

وهكذا يصعب الإسلام - مند - ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أى مند اللحظة الأولى من تاريخه - على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان ، وفي حضم من التقوى ، وعلى السام من لصدق .

قد دامت الحياة كلها لله ، فليس هناك مجال للكذب ، والرياء ، والفاق والتدعية وإرادة غير الله بالأعمال .

اقرأ . . . والتربية

٢ . ويقول الله تعالى ، في هذه الآية الأولى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ ولم يقل «اقرأ باسم الله» ذلك لأنه أراد سبحانه ، مند البدء : أن يشير إلى أن هذا الدستور الإلهي الدل من السماء إنما هو تربية ، إنه ينزل باسم المربى ، وما دامت هذه التربية إلهية المصدر ، فهي إذن محكمة الأحكام كله ، كاملة في جميع جوانبها وقد قال الله تعالى فيما بعد عن هذا الدستور

﴿كتب أحكت آياته ثم فصت من لدن حكيم خبير﴾ (٢٦)

وقال الله تعالى :

﴿لا يأتيه الدطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم

حميد﴾ (٢٧)

والترية النامة تشتمل على حبيب العقيدة ، وحائب الأخلاق ، وحائب
الشريع ، ولقد برز الدستور الإلهي على التوالي ميباً لكل هذه الجواب ،
مفصلاً لها .

ولكن الله سبحانه وتعالى ، بين في هذه الآية انق بين أيدينا أن هذه
الترية يجب أن تتقبل دون تشكك أو تردد ، لأنها من لدى خلق
ذلك أن الذي خلق ، فكون كل حلية في الجسم ، وسبقها مع غيرها
لتؤدي ، وبؤدي المجمع وطائف معينة ، هذا لدى فصل ذلك محيط عما
بالإنسان المرئي ، وهذه الترية ليست من كائن لا صلة له بالخلق ، وإنما هي
برية الخالق نفسه ، الذي أحاط بدقائق الخلق ، وعرف ما محتاج إليه
بخلوقاته ، وعرف انصار والنافع ، وعرف الخير والشر ، فتريته إدار قيادة على
علم ، وهداية على بصيرة ، وهي من أجل ذلك كله ، تربية حاسدة ، لا تختف
باختلاف الأرملة والأمكمة ، لأن الإنسان : هو الإنسان أينما وجد وبينما كان ،
لم يتبدل خلقاً بخلق ، ولا تركيباً بتركيب .

(٢٦) مود ١

(٢٧) صلب ٤٢

اقرأ . . والأخلاق

٣ - حينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى ، م بملك أن آمن
ومادا يمكن أن تفوز لشخص تحرد إلى الله ، ويدعوك أن تتحرد إليه
سماعه ، شخص لم يطيب مالا ولا حاهاً ، ولا رعاة ، ولا مكا ، إنه يريد
أن نقرأ الإنسانية كلها باسم رها ، وأن تقوم في كيمها كله على أساس من نرية
رها مادا يمكن أن تقول له ، إذا كان يشر بذلك ؟
أمكن أن تقول له ، إنك كذاب ، قد الصبق إذن ؟
أمكن أن تقول له ، إنك منافق ، فأين هو الإخلاص ؟ .

اقرأ . . والعلم

٤ - إن هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة نور سماعها إلى الإيمان
ونعود إليها من جديد ، ونرى إشرتها إلى معان أجملهاها فيما سبق ، يريد أن
يفصل فيما بعد بعض التفصيل :
كانت « اقرأ » ، دعوة آمرة موجهة إلى الثقافة ، إلى العلم ، إلى الفكر ، إلى
المبحث المستفيض في السماء وفي الأرض ، وفي الجبار ، والمحار ، وفي كل
ما خلق الله تعالى ، من كائنات صغرت أم كبرت .
ولقد اتسم الإسلام منذ هذه الكلمة بالطابع العمى ، كسمة تحارر السمات
لأخرى التي ستحدث عنها فيما بعد ، إن شاء الله تعالى
﴿ وقل رب زدني علما ﴾ .

وبذلك يكون التسخير نفسه عادة : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله
فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدايا يصبها ، أو امرأة يكرهها
فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والسيطرة على الطبيعة بدن ، في الوصع الإسلامي الصحيح هجرة إلى الله
تعالى .

وإياها قراءة باسمه ، فهي داحنة في نطاق : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ .
وإذا قرأت باسم ربك فانت عند في أعمالك وفي أقوالك ، والعلم ، في
الإسلام على الوصع لصحيح ، إذن - عادة ، حتى في الجانب المادي منه
• ولا يتأني ، ولن يتأني أب يقف الإسلام عقبة في سبيل العلم ، وأن
يتعارض الإسلام مع العلم الحديث .

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم إنما نشأت في أوروبا بعيدة عن الحو
الإسلامي ، إنها - تصور براعاً في بيئة بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التي
حثت الإنسانية على التعليم ، وإبى ولد المنهج العلمي الذي يسمونه المنهج
الحديث ، بين ربوعها ، والتي أُنشأت - على أساس من هذا المنهج - حصارة
صحمة لا تزال تكشف كل يوم . الكثير من أبحاثها العميقة

وما من شك في أن الحصارة الإسلامية هي التي قدمت للحصارة الغربية
الحديثة منهجها وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية في كثير من المجالات
المختلفة .

إن المنهج العلمي الحديث ، في أوروبا : يرجع إلى « روبريكون » فهو
الذي أداعه ونشره في أرجاء أوروبا
ويتحدث الأستاذ (ريفولت) في كتابه (بناء الإنسانية) فيقول عن

روحريكون إنه درس اللغة العربية والعلوم العربية في مدارس كسفورد على
 خفاء العرب في لأندلس ، وليس . روحريكون ، ولا لسميه الذي جاء
 معه - الحق في أن يسبب إليها الفصل في ابتكار المصحح التجريبي ، هم يكن
 (روحريكون) إلا رسولاً من رسل العلم والمصحح الإسلاميين إلى أورب
 المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح ، بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعموم
 العرب ، هو الطريق الوحيد لمعرفة ، والمناقشات التي دارت حول وصحي
 المصحح التجريبي ، هي طرف من التحريف المائل لأصول الحصار الأوربية
 وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر (بيكون) قد انتشر انتشاراً
 واسعاً ، وانك الناس في هف على حصيلة في ربيع أوربا
 ويقول (بريولت) أيضاً لقد كان العلم أهم ما حادت به الحصار
 العربية عن العالم الحديث . ولكن ثماره كانت بطيئة اصبح
 إن العقبة التي ولدتها ثقافة العرب في سبانيا لم تنهض في عصفها
 إلا بعد مضي وقت طويل على انتهاء تلك الحصار وراء سحب الظلام ، ولم
 يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة :
 من مؤثرات الحصار الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية اهـ
 وإذا كان الإسلام هو الذي أشأ هذا المصحح وهذا العلم ، فمن الطبيعي
 ألا يتعارض معه .

٦ - على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم ، إنما هي مسألة وهمية ، إذا
 نظرنا إلى حقيقة الأمر .

ودلت ، أن العلم دائرته المادة والخس ، أما الدين فدائرته ما وراء
 الطسعة ، والخبر ، والعصيلة ، فهما لا يلتقيان في الموضوع ، فكيف يتعارضان

إن ملاحظه العصر الحاضر ، يتوهمون مشاكل لا أساس لها ، ثم يصعوبها عن بساط البحث ، ويتناقشون فيها ، ويتجادلون ، وعلى مر الزمن : يضيء الألف عليها ، وهي وهمية ، صورة من ظلال الحقائق ، فمظن بعض أساس أنها مشاكل جدية بالبحث والنظر .
 من ذلك مسأله التعارض بين العلم والدين ، مع أنه لا اتحاد بين موضوعيهما .

العلم في الإسلام أوسع دائرة

٧ وإذا فتصرت أورد على العلم المادي ، فإن الإسلام : لا يفت عبء ذلك ، وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، ألا وهو : القلب أوهو الروح والبصيرة .
 إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشرقية ، أو الكشفية ، أو الإلهامية .

ويجمع الإسلام الانجاء العلمي الحديث إلى لاتمه البصري في قوله : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٢٩)
 فالسمع ، والبصر ، هما أساس العلم المادي . علم السحرة ، والملاحظة أما القلب فإن أساس العلم الإلهامي إن الله ، سبحانه وتعالى يوجه اسلم إلى الملاحظة والتجربة ، ويوجهه أيضا إلى الاستشراق للهدية ولصور القلبى ، عن طريق الخلق الكريم ، ولتقوى والإخلاص ، وحب الإنسانية ، والمعاونة في الخير .

(٢٩) الإسراء ٣٦

٨ - وإذا كان الإسلام ، أوسع نظره في الحجاب العسمى عن الحصاره الحديثه ، وأدق وأشمل ، فإنه يختلف معها اختلافاً حاداً حاسماً في مسألة الإرادات والنوايا ، وفي أمر الأسباب والبواعث . وفي انحاء انعايات والأهداف :

إن حصاره الحديثه تقول . العلم لا صلة له بالأخلاق ، أو تقول : العلم : لا أخلاقى .

والعلم ، فى نظرها لا شأن له بالخير والشر . ولكن الإسلام . يجعل أسس العلم منسمة بالخير ، ويجعل غايته ، مغسمة فى الخير ، ويجعل من العلم قرين إلى الله . ويجعل منه عبادة لله : ومن هنا : كانت حصاره الإسلام : حصاره رحمة وهداية . لا حصاره تدمير وتخریب .

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

تلك حقيقة فى الدين الإسلامى ، سواء نظرنا إلى أساسه أو نظرنا إلى غايته . أما الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه : فإنه (رحمة مهددة) .

٩

وبعد فإيا نختتم هذه الدراسة بذكر الحديث الذى أتى به الإمام البخارى عن الكعبة التى استند بها هوقل عن صدق الرسول ﷺ وهى كعبة تدل على سعة أفقه وعن رحابة صدره ، وهى كيمية يستدل بها وعلى عرارها كل من آتاه الله أفقاً رجباً وذكاء موفقاً ونصيره رشيده .

حدثنا أبو اليمان : الحكم بن نافع ، قال : أخبرنا شعيب عن الزهري ،

قال : أخبرني عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود : أن عبد الله بن عباس أخبره : أن أناساً من حرب أخبره . « أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش . وكانوا تحاراً بالشام ، في المدة التي كان رسول الله ﷺ ، هادن فيها أناساً وكفار قريش . فأتوه وهم بإيلاء ، فدعاهم في محبة وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ، ودعا بترجمانه ، فقال :

أيكم أقرب سباً هذا الرجل الذي يرغم أنه يبي ؟

فقال أبو سفيان : فقلت : أما أقربهم نسباً :

فقال أذنوه مني وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه .

قل لهم . إلى سائل هذا عن هذا لرجل ، فإني كذبت فكدبوه .

هو الله لولا الحياء من أن يأتروا على كذا لكذبت عنه .

ثم كان أبو ماسأى عنه . أن قال كيف سبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط عنه ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آيائه من ملك ؟ قلت : لا .

قال . فأشرف الناس يتبعوه أم صعدواهم ؟ قلت بل صعدواهم

قال : أيريدون أم ينفصون ؟

قلت . بن يزيدون

قال : فهل يرتد أحد منهم سجدةً لديه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا .

قال : فهل كنتم تنهونهم بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل

فيها

قال : ولم يمكئذ كلمه أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .

قال : فهل قانتتموه ؟ قلت نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال : ينال

منا وينال منه .

قال : ماذا بأمركم ؟

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول

آبائكم ، ويأمركم بالصلاة ، ويصدق ، والعفاف ، والصلوة

فقل للترجمان : قل له سألتك عن سببه فذكرت أنه فيكم ذو سب ،

فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت :

لو كان أحد قال هذا القول فله قلت : رجل يأتيك يقول قيل قبّه .

وسألتك هل كان من آباءه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، قلت : هو كان من

آبائه من ملك ؟ قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تنهونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت :

أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك أشرف الناس تبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه

وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم يقصرون ؟

فذكرت أنهم يزدون ،

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم

وسألتك : أيرتد أحد منهم سحطه لديه بعد أن يدخل فيه .

فذكرت : أن لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشائنه القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟

فذكرت : أن لا . وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : يم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبينهاكم عن عبادة

الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، وانصديق ، والعفاف .

فإن كان ما نقول حقاً فسيتم موضع قومي هاتين

وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه مسكم ، ولو أرى أعمى أنى

أخلص إليه لتحشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ۞ ^{سألتك} ^{عليه} .

خاتمة

الإسلام والحضارة الحديثة

رموضوع الدين والحضارة^(١) يستدعي أن أقول في المدا . إني مها تحدثت عن الحضارة بإحلال أو بتحقيق ، ومها تكلمت عنها بقدر أو تحليل ، إن الدين على وجه العموم لا يعارض قط ، التقدم العلمي لإسعاد الإنسانية : لا يعارض التقدم الصناعي لإسعاد الإنسانية لا يعارض في الناحية العلمية على أية صورة كانت مادام الأمر أمر إسعاد الإنسانية ، وإذا كانت هذه قضية مبررواً مها ، فإنني أنحه إذن لتصوير شاة الحضارة .

نشأة الحضارة :

الحضارة نشأت في فترة معينة من التاريخ ، وفي زمن محدد تعلم ابتداءه وتعلم العوامل التي أنشأتها ، والتي كانت الأساس في هذه لشاة . وكلنا يعلم أنه في فترة من الفترات ، كانت الكنيسة مسيطرة على العالم الأوربي سيطرة تامة . ماكان هناك شيء يفعل ، أو شيء ينتهي فيه الأمر ، ولا شيء يقام أو يهدم ، وماكان إنسان يقدم على أمر ، وماكان إنسان يحجم

(١) هذه القائمة ، هي محاضرة ألقيت في ناعة الشيخ محمد عبده شعها بعين أسفوها الشعبي دون

تغير مها

عن أمر ، إلا باستئذان لكيسة ، وباستئذان رجال الدين . ولكن الكيسة
ورجال الدين تعسفوا في استعمال سلطتهم ، حتى لقد أسأوا محاكم التفتيش .

وقد كتب الأوروبيون والمسيحيون عن محاكم التفتيش كثيراً ، وصوروها في
أشنع مظاهرها ، وفي أسوأ صورها ، كتب الكاثوليك والبروتستانت وكتب
المقرسيون ، وكتب الإنجليز كتب كل هؤلاء - وهم رجال المسيحية - مما
يتعلق بهذا الأمر .

ولقد وصحو ويبنوا أن الكتب الذي كان يعمر أوروبا في ذلك العصر ، ولّد
الانفجار ، واتحد الانفجار اتحاداً معيماً ، اتحد الانفجار الإنساني .

وأحد قادة الحصار مستثنين من هذا الانفجار الإنساني - يقررون أن
الإنسان له كيانه ، به شخصيته ، له دأئته ، له حدوده ، له تقديراته ، له
مكائنه التي يجب أن يحتلها يجب أن يحتل لإنسان المكائنه التي تليق به

ومن هنا كانت كلمة الإنسانية التي يطلق - كرميمر على هذه الحصاره
ومن هنا كان تمجيد الإنسانية

ولكن حينما بدعوا يتحدثون عن الإنسان في ثورة عواطفهم القوية ، وفي
غمرة نفورهم شديد من رجال الدين ، كانت كلمة الإنسانية بوحى عدد
قادتهم بانفصال الإنسانية عن الإلهية ، أو انفصال الإنسانية عن الكيسة
أو انفصال الإنسان عن الدين ، أو بالتعبير الحديث انفصال الدين عن الدولة

يجب أن يكون للإنسان مكائنه ، يجب أن يكون له موقعه أمام الدين واتجاه
الألوهية اتجاه النص المقدس ، اتجاه الكيسة ، ويجب أن يحصع كل ذلك
للإنسان

فالإنسان له عقله ، له منطق ، وبح أن يسير بهذا العقل ، وبهذا التفكير وبهذا المنطق .

وتصوروا جماعة من الجماعات ، كانت السيوف مصلتة عندها من جميع النواحي ، ثم انفجرت هذه الجماعة فقصت على سلاح الموجه إلى بحرهما ماذا يكون تفكيرها بالنسبة لهذا السلاح ، وبالنسبة لحامله ؛ بالنسبة لهذا المصدر الذي كان للكبت ؟ إن تفكيرها في هذا حالته يكون معارصاً متقدماً ، ومتحمساً في معارضته ، وفي انتقاده ، ولكن يشعر أحياناً بشعور السفاك الهيم للإنسانية الدماء !

هكذا كان الأمر في بدء الحضارة الحديثة . لقد أورد رعاؤها ، أن يتخلصوا من الدين ومن رجال الدين ، لتحتل الإنسانية مكانها دون معارضة لها أو كبت أو تنكيل .

وحينما أقول « الإنسانية » . يحلظ الأمر نوعاً ما ، إذ إن معنى هذه الكلمة اكتسب من الألام التي نزلت بالإنسانية في كثير من فترات التاريخ - نوعاً من التقديس وكثيراً من التمجيد والعطف ، ولذلك فبني دون إنحلال بالمعنى ، سأسعمل كلمة « الشريعة » وإذا استعملت كلمة الشريعة كان المعنى الذي أريده أدق فيما يتعلق بصفة انثورة لأوربية ، أو الحضارة الأوربية في بدء نشأتها ، وفي ثورتها ضد رجال الكنيسة .

كان هناك إذن الدين من جانب ، وكانت هناك الشريعة من جانب آخر ، ورأدت هذه الشريعة أن تقف في وجه الدين ، وأن تستقل بنفسها في وضع أصولها ، وقواعدها ، ونظمها ، وأن تنهى في النهاية إلى أن تكون مستقلة كل لاستقلال عن جميع النواحي التي تتعلق بهذا الجانب الروحي

وتلقت الحصار أو محتلوا الحصار أو الذين يقومون على الحصار تفتوا
مبياً وشمالاً على الأصول والقواعد التي يمكنهم أن يقيموا عليها نظمهم
الشريعة ، وتساءلوا - ماذا يمكن أن يحل محل الدين ؟

إن الدين نظام اجتماعي ، وتشريعي ، وأخلاقي ، ما الذي يمكن أن يحل
محل هذه النظم ؟ إذا أردنا أن نتخلص من هذه النظم لأنها نظم دينية يقوم
عليها رجال الكنيسة ، رجال محاكم التفتيش ، ما هي المصادر والمنايع التي
ستبقى منها ، إذا أردنا أن يسود الاطمئنان في المجتمع ؟

أما المصادر فما كان يمكن ، وما كان يتأتى ، إلا أن تكون مصدرين :

١ - العقل في ناحية ما وراء الطبيعة

٢ - والصمير في ناحية الأخلاق .

إذن لحأت الحصار الحديثة ، هما وراء الطبيعة إلى العقل ، ولجأت في
الأخلاق إلى الصمير : فالعقل : هو لدى يؤسس ما وراء الطبيعة . والصمير
هو الذي نرجع إليه في الأخلاق .

ولكن . تحبط العقل - لأنه يختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ،
ومن زمن لزمان ، ومن مكان لمكان ، ومن ثقافة لأخرى .

وأخذ الصمير من حانه أيضاً يوحى بإيحاءات مختلفة . فالصمير ليس
إلا أثراً للبيئة ، وللثقافة ، وللوسط الذي يعيش فيه . ليس الصمير معصوماً قط
وإنها لفكرة حرامية : كون الصمير معصوماً والصمير إذا تخضع من سيطرة
الدين فإنه يوحى بالفساد ، كما يوحى بالصلاح ، لأنه ابن البيئة ، فإذا كانت
البيئة إحرامية فالصمير إجرامي ، وإذا كانت البيئة صالحة فالصمير صالح ،

وإذا كانت البيثة أوربية فالضمير أوربي ، وإذا كانت البيثة شرقية فالضمير شرقى .

ومن الواضح ، أن ضمير الأوربيين لا يؤنبهم قط على السفك الذى يستبيحونه فى كل قطر يسيطرون عليه ، إنه يبيح بدن - لو اتخذناه مقياساً - السفك والتنكيل ، والاستعمار .

ليس هناك إذن شىء ثابت مستقر معصوم اسمه الضمير وليس هناك قصايا يتفق عليها العقل فيما وراء الطبيعة . ونحط العقل ، ونحط الضمير .

فما المخرج إذن ؟

أسطورة التطور الإنسانى :

رأى رجال الحضارة ، أن بلحثوا إلى شىء يبعد عنهم وصمة العجز ، فلبثوا إلى فكرة التطور . الإنسان متطور ، الأفكار متطورة . وإذا مسألة ليست مسألة خطأ صريح ، وإنما هى مسألة تطور فيما يتعنى بالأفكار ، وهما يتعلق بالمعنى . ومادام هناك قانون للتطور إذن لا عيب عليهم إذا أخطأوا أو تخبطوا فى كل مرحلة من مراحلهم . وفى كل فترة من فتراتهم وبادى الحضاريون الشرقيون بفصل الدين عن الدولة . وحيثما فصل الدين عن الدولة رأت الدولة نفسها تتخطى حيزها تستند إلى العقل فى نظمها الدنية والاحتجاعة ، وحيثما تستند إلى الضمير فى نظمها الأخلاقية ، فاحترعت أسطورة التطور الإنسانى فيما يتعلق بالفكر .

وكانت كلمة التطور هى الطلمس السحرى ، الذى يحاولون التعلل به ،

لإحفاء عجز العقل والصمير الإنساني ، لإحفاء هذ لعجز المطلق الذي يجعل
لإنسان متحطاً بعقله في أمور ما وراء إنصبة ، ومتحطاً بضيقه ، في أمور
لأخلاق ؟ لقد أحفوا كل ذلك بفكرة التطور

ليس في الأحكام القاطعة تطور .

ولكن إذا نظرنا إلى فكرة التطور في الدين والأخلاق فما معناها حقيقة ؟
ما معنى فكرة التطور . إذا أدخلناها في الفكر على وجه العموم ؟
بفكرة التطور ما هي إلا عودة إلى السوفسطائية القديمة ، إنها عودة إلى
آراء اليونان القدماء - السوفسطائيين - لأن معنى التطور في الفكر أنه ليس
هناك قضية ثابتة وإنما جميع القضايا الفكرية متطورة ، وهذا التطور
لا ينتهي إلى حد ، وإذا هناك النسبية باستمرار ، هناك النسبية المطلقة ، هناك
بدن الخط المستمر ، وهذا الخط لا علاج له ما دامت نقول بالتطور ، لأنه ما دما
نقول بالنسبية والتطور فليس هناك الثبات ، وإذا لا يكون هناك ثبات في
الدين ، ولا يكون هناك ثبات في الأخلاق .

إذا أدخلنا فكرتهم بالتطور في الدين فقد قصينا على الدين وإذا أدخلنا
فكرة التطور في الأخلاق فقد قصينا على الأخلاق .

هذه الفكرة التي أحدث عنها . فكرة إدخال التطور في الدين فكرة سمعناها
من الكثيرين ، لقد ألبسنا كلمة التطور ، وألفنا لذلك كلمة إدخال التطور في
الدين إلى درجة أنه يجبل إلى وأنا نتحدث فيها ، أن الأمر غريب على بعض
لأدهان التي تسأل . لم لا يكون في الدين تطور ؟

ولكن إذا فهمت فكرة التطور على حقيقتها ، وإذا فهمت فكرة الدين على

حقيقتها كان لا مناص من الإقرار ، بأن الدين لا يدخله قط -- ولا شروى
نقيض ، لا ، ولا قلامة ظفر . فكرة التطور .

إن انتطور المكرب تعبير من حان إلى حان ، وهو تعبير مستمر دائم ، إنه
تعبير لا يتناهى هدوء ولا سكون ، إنها إدل اسسية ، إنها إدل السوفسطائية
القديمة ، إنها عود إلى هذه الفترة بقديمة التي لم يكن فيها دين ثابت ، ولم يكن
فيها خلق ثابت ، فالأمر فيها حينئذ عند السوفسطائين ليس أمر ثبات مطلق
وليس أمر عصمة ، وليس أمر قصدياً محققة ، وإنما الأمر أمر تعبير باستمرار
وأمر نسبية .

وبذلك يقضى على الدين : ويقضى على الأخلاق .

وإنه لمن المؤسف حقيقة - أننا نجد فكرة التطور تنسرب إلى الناحية
الدنية ، وإلى المحيط الديني في الأقاليم الإسلامية ، وهذه الفكرة لخطورتها
ولأنى أعلق على إراتها كثيراً من الأهمية . أريد أن أصرب بعض الأمثلة حتى
نكون على بينة من الأمر :

قرأت في بعض المحلات مقالاً يقول كانه إن عصية الشيخ () رحل
منطور واسع الأفق . ومن مظهر تطوره -- في رأى الكاتب - أنه يأتي إلا أن
يقم صلاة العائث على روح فلان ، وفلان هذا الذى ذكره الكاتب ، لا يدين
بدن الإسلام ، وما من شك في أن ذلك لا يجوز إسلامياً ، وما من شك في
أن فضيلة العالم الكبير ، لا يعمل ذلك ولا يبيحه ، ولكن ذلك إن دل على
شيء فإنما يدل على جهل الكاتب بمعنى الخصائص الدينية التي لا تتغير بتغير
الأهواء والعواطف ، ويدل من حجاب آخر على الخطورة التي يتعرض لها الدين

حيثما تلحبه فكرة التطور ، وحيثما تناوله أقلام لادين لا يعقلون دين الله على

لوجه السليم

ومثل آخر :

إننا جميعاً نحل الشيخ محمد عبده ، ونحترمه وندين له بكثير من تخلص
الدين من الحرافات والأساطير ، ولكن حيثما نقرأ له تفسير قصة آدم فراه لا يجمع
احتمان أنها تمثيل ! ، نسأل : لم ذكر الشيخ محمد عبده هذا الاحتمال ؟ حيثما
تسأل حقيقة عن السر العميق - في الشعور أو في اللاشعور - نجد أن الشيخ
محمد عبده رأى أن فكرة التطور مشيرة في جميع أرجاء أوربا ، بل والعالم
وهي فيما يرى مظاهرها تتعارض مع التعاليم التي تسمى أن آدم هو أول
البشر ، وهو الذي خلقه الله وسواه ، وخاطب الملائكة في شأنه وأمرهم أن
يسجدوا له :

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيراً مع فكره التطور
المزعومة . فمدا صنع ؟ ذكر هذا الاحتمال ، وبذلك يمكننا أن نؤولها كيفما
نشأنا ، وما كنا نود أن يحير ذلك إد أنه بفتح للناس باب التأويل في صورة من
الاستعاضة الضارة .

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يصر اختلاف رسالات الرسل ونعاقبها .
موسوية وعيسوية وإسلامية ، بتطور الإنسانية ، إن الإنسانية - حسما يرى -
حسية في زمن موسى ، فكانت رسالة سيدنا موسى حسية . ثم تطورت الإنسانية
من الحس إلى العاطفة ، فكانت رسالة سيدنا عيسى عاطفية . ثم تطورت
لإنسانية من الحس والعاطفة إلى العقل ، فكانت رسالة سيدنا محمد عقلية .
ورأى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور ، وأن الإنسانية أيما سرنا وعد أي

فرد رأياً ، وفي أي مجتمع شاهدنا ، فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاثة .
الحس ، والعاطفة ، والعقل ، ولكن فكرة التطور ، وأن الإنسانية متصورة
ننته بأن أصبحت ميطرة على الكثيرين فانقادوا لها ، وأدخلوها في المحيط
الديني ، فأفسدت كثيراً من القصايا . وبعود فنرحم على الشيخ محمد عبده .
وإذا ك نتقده ونحن نحاضر في قاعته ، فذلك أنا نعلم أنه رحمه الله ، كان من
سعة الصدر ، ومن سعة الأفق بحث لا يضيق بنقد ، ويعتقد أنه لا يضيق الآن
بنقدنا .

ونأتي إلى شحصبه أخرى نمجدها أيضاً ونحترمها . شخصية محمد إقبال .
وإن جهاده بالنسبة للإسلام ، وجهاده بالنسبة للمسلمين لا ينكر .
ولكنه لم يستطع أن يتخلص من فكرة التطور في بعض المسائل كما رأى
فليراجعها من شاء في آرائه وفلسفته .
أيها السادة :

كلكم تعلمون أن الدين عقيدة وأخلاق وشريعة ، وتصوير التطور في
العقيدة ، أن نقول مثلاً اليوم ، ربنا واحد أما غداً فإنه سبحانه وتعالى
عن ذلك يكون اثنين 19 .

وتصوير التطور في الأخلاق ، أن نقول مثلاً : إن الصدق اليوم فضيلة
وعداً يكون رذيلة ، أو الصدق فضيلة اليوم وهو غداً ليس بفضيلة ولا رذيلة !
فأنتم ترون أنه لا تطور في العقيدة ، ولا في الأخلاق

لكن الشبه تخلق في بعض الأذهان حول التطور في التشريع ، والذي يوجد
الوهم هذه الشبه هو : باب الاجتهاد ، والمنطق يقول : إنه مادام هناك اجتهاد
في التشريع فسيكون هناك تطور فيه ، ولكن الذي يقول هذا الكلام لا يفهم

معنى الاجتهاد ، أو هو يفهم معناه ويحاول أن يتحاهه . معنى الاجتهاد وحقيقته . إنما هو المحاولة الحادة المستمرة للوصول إلى ما كان عليه الرسول ﷺ ، من أجل اتساعه . ومن أجل إدخال المسائل الجديدة تحت القواعد القديمة انى استنتجت من كلام الرسول ﷺ ومن أفراد . وليس للاجتهاد معنى آخر غير هذا .

وكل المجتهدين . الإمام الشافعى ، الإمام أحمد بن حنبل ، الإمام أبو حنيفة ، الإمام مالك كلهم يقولون : إذا صح الحديث فاضرب برأى عرص الحائط : أى أنه إذا رأى رأياً من الآراء ملتصقاً بهذا الرأى ، أن يكون موافقاً لكلام الرسول ، ثم تبين فيما بعد أنه خطأ ، لأن الحديث يفيد غير ذلك ، فإن كلامه ورأيه لا قيمة لهما . ويجب أن يطرحا ويهملأ وأن يأخذ بكلام الرسول ﷺ

ويذن ليس في الاجتهاد تطور

إن العقل كمنع لما وراء الطبيعة ، ولصمير كمنع للأخلاق . .

كل هذه هي الشريعة في مقابلة الألوهية ، في مقابلة النص ، واعتمدت من الحصار الحديثة على الشريعة في مبادئها وقواعدها ، فكانت اسلم لاجتماعية مختلفة ، والنظم الأخلاقية المختلفة ، وكان الهدم في كل يوم وانتهت في بعض الميادين الفكرية الاجتماعية إلى ما كان يمكن أن يتصور أن تنتهى إليه :

لقد انتهت بتفسير أو تصوير رائع ، لآية قرآنية كريهة هي .

﴿واتل عليهم ما آتينا آياتنا وسلخ منها فأنتهه الشيطان فكان من لعوين . وبوشنا لرفعناه بها ولكنه أحمدا إلى الأرض واتع هواه فثله كمثل

الكذب إن تحمل عليه يلهث ، أو نتركه يلهث .

وأريد أن أشرح هذه الآية في إيحاء : إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره ، فالسموات من آيات الله ، والأرض من آيات الله ، والأشجار من آيات الله ، والأنهار والحيال ، والمحيطات والبحوم والكواكب كل ذلك من آيات الله هذا الإبداع المحكم ، الذي يحيط بالإنسان من جميع أقطاره ، هذه الآيات التي تحيط بالناس ، أينما كانوا واتى نادى بحلال الله وعظمته حاول بعض الناس الانسلاخ منها - فلم يقرؤا بالألوهية الإقرار السليم والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون .

لقد حاولوا الانسلاخ منها وهي ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان ، وانسلخوا منها بعد لأى وعلى خلاف الفطرة ، وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعي ، واستدعوا بذلك من محيط الألوهية ، إنهم خرجوا عن سدادق الألوهية ، وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله ، فتهبتوا بصيغهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان ، وسهل على الشيطان غزوهم ، فعزاهم بحبه ورحله فكانوا من الغاوين ، وبو شاء الله لرفعهم بآياته ، ولكن العيب جاء منهم هم ، إذ انحدوا إلى الأرض :

وما من ريب في أن الإحلال إلى الأرض في نشع صورته هو نشيوعيه .
واتبعوا أهواءهم .

وما من شك في اتباع الهوى في أسمع صورة هو الفلسفة الوجودية وسواء كنا بصدد الشيوعي ، أو بصدد الوجودي فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو نتركه يلهث
ولكن لِمَ يلهث سواء أحملت عليه أم تركته ؟

إن الشيعي ليس همه إلا المادة ، والإخلاق إلى الأرض . وبها يسط الله به
في الرزق فهو ضيق بذلك . وإذا ضيق الله عليه الرزق ، فهو ضيق بذلك
أيضا ، إياه لا يطمئن إلى شيء روحى يقسمه ، والمادة معها أوقى الإنسان منها -
فإنها مدام حشعاً لا تنهى إلى إرضائه ، وكذلك الأمر فيما يتعنى
بالوجودى :

فإنه وقد أثر اتساع الهوى ويست الوجودية إلا يثار اتباع الهوى فإنه
لا يعتمد على هاد يطمئنه ، ولا على اطمئنان يسكنه ، وهو ضيق بالحياة
درعاً ، سواء كان سعيداً أو شقيماً ، فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث
أو تتركه يلهث

انتهت الحضارة إلى أمثال هذه النظم التى لا ترى إلا المادة أو لا ترى
إلا البشرية المأهولة أو الغاوية ، وانتهى الأمر بالشيعى والوجودى إلى ما كان
لا مفر من أن ينتهى إليه ، وهو انفصال الشيعى وانفصال لوجودى عن المحيط
الإلهى ، عن السراىق الإلهى

ومما لا شك فيه ، أن هذه النظم التى لا تتصل بالعصمة إنما تتحبط وتكون
باستمرار متأرجحة متقلبة ، ولا تستقر استقراراً سيباً إلا بالحديد والبار ،
وبالسلاح وبسبك الدماء ، وبالقتل وإن ما وراء الستار الحديدى يمكن أن
يكون صورة لكل هذه الانفصال عن الألوهية ، الذى لا يستقر إلا بالحديد
والبار

تنت أسس الحضارة ومبانيها ، ومصادرها عقل ، فضمير . فتطور ،
فانتهاء إلى أمثال هذه النظم التى خرجت بالإنسان عن الجادة .

والدين إذن لا يعارضان التقدم في سبيل إسماعيل الشريعة . هذه قصبة نحن مسلمون بـ .

الإسلام

نريد أن نتحدث عن الإسلام ، وتكفي كلمة « الإسلام » تكفي هذه الكلمة ، للدلالة على أن هذا الدين صحيح ، منزل من عند الله . إن معنى الإسلام : الاستسلام لله في كل مظهر من المظاهر ، وفي كل حركة من الحركات ، وفي كل أمر من الأمور . وتصور المعنى لهذا التعبير الرائع الآية القرآنية الكريمة :

﴿ قل إن صلاتي وسكوتي وبخياي وعمالي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ .

إن هذا التصوير للإسلام في هذه الآية الكريمة رائع حقاً . استسلام لله ، أي دخول في لطاق الإلهي ، ابتعاد عن الهوى ولشيطان ، إبه إسلام الوجه لله : فرق كبير بين هذا وبين الخروج عن الطاق الإلهي بالشوكة أو بالوحدة .

وفيما يتعلق بالإسلام هناك العظم المعصومة . هناك الأخلاق المعصومة والتشريع المعصوم هناك إذن العصمة كاملة ، ولكن الاستسلام لله يقتضي شيئاً آخر هو الجهاد والكفاح المستمر من أجل الحق والخير وإعلاء كلمة الله ، فإذا لم يكن هناك جهاد من أجل الإسلام فلا إسلام . ومن لم يجاهد من أجل إسلامه فليس بمسلم هناك إذن الجهاد ، وهناك الانجاء إلى جعل لإنسان ربانياً أو إلهياً .

ولكن ما هي السبل التي رسمها الإسلام ، جعل الإنسان ربانياً ؟

نقد :

١ - صمغ الله الررق .

٢ - وحدد الآجال

﴿ وفي السماء رزقكم وما يوعدون ﴾ . ولصعفا واشعالتنا بالرزق
والحرص عليه أكد الله صمائه بقوله تعالى : ﴿ فو رب السماء والأرض إنه لحق
مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

وحدد الآجال ، وضرب لذلك أوصح الأمثال : فلو مرضنا أن إنساناً في
برج مشيد وكس عليه القتل ، خرج من هـد البرج اسـشيد إلى القتل : ﴿ ثم
نزل عليكم من بعد النعم أمانة يعاس يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمهم
أنفسهم بطون بالله عبر الحق طر الحاهية بقولون هل لنا من الأمر من شيء قل
إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر
شيء ما اقتناهاها ، هل لو كنتم في بيوتكم ببرر اندين كتب عليهم انقتل إلى
مصاجعهم وليتلى الله ما في صدوركم ولمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات
الصدور ﴾ .

بإذن الآجال محددة ، والأوراق مصمومة ، فإذا بعد ذلك إلا الاتحاه إلى
الله كيه ، وبكل ما تمك ، وبكل ما تحس ، وبكل ما تشعر .
وبس الاتحاه إلى الله كسلأ فالأعمال عبادة ما دمت متحهاً بها إلى الله :
حركاتك وسكياتك وأنفاسك ، إذا اتحمت هـ إلى الله فهي عبادة . فالعامل في
معمه إذا اتحه بعمله إلى الله فهو عابد والصانع في مصمعه عابد إذا كان متحهاً
بعمله إلى الله ومن كات هـ حرته إلى الله ورسوله بمعمه ، وصاعته ، وحركاته

وسكاته ، فمحرمه إلى الله ورسوله ، والله يشبه على فعله
 إذا كان لله قد صم الرق ، وحدد الآجال ، فليس ههنا مطلقاً عدل من
 الأعداء للمسلم لأن يتجادل ، وأن يتكاسل ، وأن ينواكل
 والصورة المثلى في ذلك إنما هي صورة محمد صلوات الله وسلامه عليه في
 كفاحه الذي لم يفت ، وجهده المستمر ، وهي ضرورة للمتأسين به يجب أن
 تتحدى

ولكن لم الجهاد ؟ ولم الكفاح ؟ .

هناك رسالة إسلامية ونحن مكلفون بها ونحن لا نقول الأدهر فحسب
 هو المكلف بها ، وإنما نقول إن كل مسلم مكلف بهذه الرسالة
 وهذه الرسالة الإسلامية تصورها الآية الكريمة . ﴿ وما أرسلك إلا رحمة
 للعالمين ﴾ .

والرحمة بالإسائية ، إنما هي إخراجها عن دائرة الشيطان إلى دائرة الله
 سبحانه وتعالى . إخراجها عن التناحر وعن التنازع من أجل المادة . في السموي
 آفاق الأخوة ، وفي آفاق الرحمة اشتماله العمم هذه الرسالة الرحيمه الرحيمه
 التي حددها الإسلام بنظمه ومبادئه ، والتي كلها بها ، وكما حيرامة أخرجت
 لباس من أجلها . إذا لم نعلم بها في وجه الحصار الحديثة ، لا يكون مسلمين
 أو على الأقل لا يكون في عملنا السلبي من الذين يتأسون بصاحب الرسالة
 الإسلامية ، ولن يكون بنا المحر نأنا من حمله الرسالة الرحيمه رساله
 الرحمة المهداة .

اعتزاز المسلم بدينه .

والواقع أن المسلم يحب أن يفخر حقيقة بدينه وبظلمه وبرسوله وبأئمة
ودون أن نريد موازنة في قتل ولا كثير ، نرى مثلاً أن هذا الشح الوقور
سيدنا نوحاً عليه السلام الذى عاش في قومه دهرأ يدعوهم إلى الله ، انتهى به
الأمر بأن كاتب كل الحصيلة مجموعة حملت في سفينة .

وإذا حثنا إلى سيدنا موسى نحد أنه حين أراد القتال ، قال له قومه
﴿ يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا
ههنا قاعدون ﴾ .

ومن الصور القرآنية الطريقة جدا ، أن سيدنا موسى بعد أن حاهد في قومه
هذا الجهاد بالدعوة والإرشاد والنصيحة ، تركهم فترة وتقدمهم قليلاً ، فخاطبه
الله بقوله :

﴿ وما أعجلت عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت
إليك رب لترضى ﴾ . فذكر كليم الله ، أن قومه هم أولاء على أثره ولكى
الشرق والحب حمله على ذلك : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ . وجميل
هد لكن انظروا إلى التربية الحكيمة في الأسلوب المذهب ، هذا الأسلوب
الذى كأنه يقول . إليك لم تحكم أمر الدعوة من ورائك ، وإن إحكام أمر
الدعوة إنما هو لقاء الله : ﴿ قال فإيا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم
السمرى فرجع موسى إلى قومه غصان أسفا ﴾

وإذا حثنا إلى سيدنا عيسى ، فإننا نحد أن سيدنا عيسى صلوات الله عليه
وسلامه حين رعه الله إليه ، لم يكن هناك من يقر برسائله ، إلا بضعة أفراد

يعدون على الأصابع ، أو يعدون بالعشرات وأكبر تقدير لأتباع سيدنا عيسى ،
أسم كانوا ثلثمائة أحد سيدنا موسى قومه ، من مصر فاراً بهم ولم يقابل ولم
يحاهد ، وحين أدركه فرعون لم يتوجه إلى القتال وإلى الجهاد ، وإنما توجه إلى
الله ، فأمره الله بضرب البحر بعصاه ، فصرب البحر فانفلق فكان كل فرق
كالطرد العظيم . ومر موسى وقومه آمين دون جهاد ودون كفاح .

وسيدنا عيسى لم يتوجه إلى القتل ولا الكفاح في سبيل إعلاء كلمة الله التي
هي الحق والخير .

ولكن إذا حسنا إلى سيدنا محمد ﷺ : فإننا نجد مباشرة اعتراف المصمم
والإرادة الناعمة .

يجب أن يدرك العالم الله وأن يسلم وجهه لله ، لتلك الرسالة الإسلامية .
ويجب أن يقف محمد صلوات الله وسلامه عليه ولو بمفرده في وجه العالم كله
وفي وجه الكون بأكمله ، في وجه هذه الدنيا .

يجب أن يدرك العالم ، يجب أن تدرك السماء والأرض ، وأن يدرك البشر
بأجمعهم لرسالة السماء ووقف سيدنا محمد يحاهد ويجهاد ويكافح ويتحطى
العقبات ، ويتعب على الصعوبات إلى أن انتهى به الأمر إلى النصر الكامل ،
بالكفاح في سبيل الحق ، الكفاح إذن حراً لا يتحرراً من الرسالة الإسلامية إنه
الكفاح من أجل الله ، لأمس أهل مادة الشيوعيين الكفاح من أجل الله لا من
أجل أهواء الوجوديين إن الرسالة الإسلامية رسالة رحمة ورسالة كفاح من
أجل الرحمة ، ورسولها خير معبر عنها بسوكة ومواقفه ، فمن لم يتأس بالرسول ،
ومن لم يكافح في سبيل الإسلام فليس له أن يصحح بأنه مسلم فضلاً عن أن يدعى
أنه مسلم مثالي .

تغلب محمد رسول الله ﷺ على كل عقبة وزلزل كل صعوبة ، وحطم كل صنم ، وانتهى به الأمر إلى أن شاهد ارتفاع الأذان الإسلامى فوق الكعبة وفى مكة التى كانت تأبى كل الإباء أن تدين لله ، وأن تسلم وجهها إلى الله وحده . رمهتنا جميعاً إذن هى مهمة الرسول : تحطيم الأصنام : تحطيم صنم الشهرة والهوى المتغلغل فى النفس ، وتحطيم صنم المادة ، ونشر رسالة الحق والرحمة حتى تنتهى من كل ذلك بأن يسلم العالم وجهه إلى الله . فإذا انتهينا إلى ذلك ، أو إذا ما حققناه كنا فى رضوان الله ، وكنا من هؤلاء الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وإنى لأرجو فى النهاية - أن يتكاتف المخلصون فى العالم الإسلامى ويتساندوا ، ليقفوا أمام هذا الزحف المتتابع من المدنية الغربية ، التى تريد أن تطمس الإسلام فى أهدافه وفى نظمه ، وفى تعاليمه ، وفى أقدس مقدساته . إذا أمكن أن يتكاتف المخلصون فإن الأمر سينتهى بالنصر ، أما إذا لم يتكاتفوا فإن ذلك لا يعنى كل مسلم - منفرداً - من العمل الجاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والعمل على سيادة المبادئ الإسلامية ، ففيتها سعادة العالم إن شاء الله تعالى .

وبالله التوفيق

فهرس

الصفحات

١٢ - ٧

مقدمة

القسم الأول : في الفلسفة

٣٠ - ١٥ : القرآن هاد للعقل	الفصل الأول
٤١ - ٣١	.. : موقف المسلم من الدين (السجود)	الفصل الثاني
٥٦ - ٤٢ : الإمام الشافعي والفكر اليوناني	الفصل الثالث
٧٥ - ٥٧ : إخفاق الفلسفة	الفصل الرابع
٨٥ - ٧٦ : الإمام الغزالي والفلسفة	الفصل الخامس
١٠٤ - ٨٦ : تأملات في الإيمان والإلحاد	الفصل السادس

القسم الثاني : في علم الكلام

١١٤ - ١٠٧ : الفلسفة وعلم الكلام	الفصل الأول
١٦٠ - ١١٥ : علم الكلام الراهن	الفصل الثاني
١٧٦ - ١٦١ : الإمام الغزالي والمتكلمون	الفصل الثالث
٢٢٠ - ١٧٧ : علم الكلام فيما ينبغي أن يكون	الفصل الرابع
٢٣٨ - ٢٢١ : الإسلام والحضارة الحديثة	خاتمة

١٩٩٨/١٧٥٣١	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5723-0	الترقيم الدولي

١/٩٨/١٢١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعَدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامي والتصوف في العصر الحديث ، ولقب بأبي التصوف في العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأهمّات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالي وكتابه « المتقد من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و « القرآن في شهر القرآن » ، إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة في عرض أي موضوع أو مسألة تتعلق بأمر الدين ، وأيضا بمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارة ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية في شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه في قلوبنا على مر العصور .

إلى القارئ : محمد أبو طالب

٠٠١١٧٢/٠١

